العاقارب:

من عام 1881 الى عام 1981

بقلم : البشير بن سلامة

مائة سنة مضت على توقيع معاهدة باردو (12 ماى 1881) مر فيها الشعب التونسى باحداث جسام قلقلت حياة افراده وفئاته وغيرت وجه ارضه ووجهته وجهة لم يكن ليتصورها .

ألم تكن حالة البلاد فى 12 ماى 1881 تتمثل فى دولة تنهار وتسلم مقاليد أمورها فى يد دولة أجنبية لتحميها من شعب قد ذاق الامرين من تصرفات أسرة مالكة دلت الوقائع على أنها لم تكن فى مستوى الاحداث ؟

ثم ألم تكن حالة البلاد فى ذلك التاريخ تكشف عن مأساة شعب قاوم منذ الدهور الحكم المطلق واذاق أصحابه مرارة الثورات وصلابة العزائم الكريمة واطاح بالدول الظالمة ورد الغزاة وكسر شوكتهم المرات تلو المرات فلم يسعفه الحظ ليبنى صرحه و « يستقل بالدعوة لنفسه » كما يقول ابن خلدون ؟ ويكون مآله فى آخر الامر أن تسلمه الدولة الموكلة به مكتوف الأيدى للأجنبى فى مسرحية مأسوية فظيعة بعد أن شتتت صفوفه واستغلت كل نوازع الشر ودعاته من عروشية وقبلية ورشوة وفساد وطرقية منحرفة وخيانة وغدر وانانية وجهل مطبق ؟

كل عوامل الشر تغلبت على الشعب التونسى آنذاك وهو الذى بنى الحضارات بسواعد أبنائه أثناء الفترة القرطاجية البونقية منها والرومانية ثم البيزنطية ثم العربية الاسلامية وهو الذى أسكت كل النحل الدينية المتطرفة

المعتمدة على التنظيمات السرية وأجبر الدولة الامامية الشيعية على النزوح والهروب الى ارض أخرى ليبقى الاسلام خادما للشعب عن طريق فقهاء آلوا على أنفسهم ألا يكون الدين مطية لأى غرض مشبوه وأن يكون عماده العقل والعقيدة السنية الطاهرة .

كل أسباب الانحلال أوهنت قوة الشعب التونسى بعد أن بدأت نخبته تتجه اتجاها عصريا وتبدأ عملها الاصلاحى ـ قبل أن يظهر محمد عبده وجمال الدين الأفغانى فى المشرق العربى ـ مع أمثال محمود قابادو وابن أبى الضياف وبيرم الخامس وخير الدين التونسى . فكان تأسيس المدرسة الصادقية وإصلاح التعليم بالجامعة الزيتونية وتنظيم الادارة والاتجاه الى رعاية شؤون الشعب كل هذا كان من شأنه أن يفتح على البلاد بابا جديدا من التقدم والرقى والنهضة الشاملة انطلاقا من أصالة هذا الشعب وانتمائه الحضارى العربى الاسلامى .

كان المسار إذن واضحا والطريق بينة وبدأت نخبة من التونسيين قبل انتصاب الحماية تتعلم بفرنسا وتحتك بالحضارة الغربية وانطلقت بعض المؤسسات فى البلاد تتعصر وتتجدد ولكن أسرة البايات كانت مطوقة بعدة عوامل داخلية وخارجية لم تمكنها من السير فى طريق الاصلاح فسهلت على المستعمر احتلال البلاد وعطلت الانطلاقة المرجوة .

وخلافا لما أشاعته سلط الحماية آنذاك وما تعارف عليه الكثير من ان الشعب التونسى لم يقاوم جيوش المستعمر فان الواقع يكذب هذا الادعاء ويفنده . إذ قال فيكتور سير : « لما تم إمضاء المعاهدة ظننا أن كل الصعوبات انتهت . لكن ذلك الظن لم يكن الا نتيجة عدم معرفتنا بأخلاق السكان فقد رجع الجنرال فورجمول الى قسنطينة تاركا لتمهيد الراحة والامن 15.000 جندى موزعين على ثمانية مراكز ولم يكن بالعاصمة ولو جندى فرنسى واحد لأننا لم نحتلها بعد وما أن غادر الجنرال فورجمول الحدود حتى ثار السكان فى كامل البلاد » .

وهذا بالضبط ما رددته الاشعار الشعبية عند ذكر المعارك التى كانت متعددة فى المدن والقرى وخاصة فى الجنوب التونسى لكن المقاومة اصطدمت من جهة بقوة الجيش الفرنسى ومن جهة اخرى لم تجد من الدولة المنتمية اليها السند والمعين وظلت تمنى النفس بنصرة الخلافة العثمانية التى لم تكن فى مستوى الاحداث فى ذلك الوقت .

وإن ظاهرة أساسية لا بد من إثارتها وإعطائها الاهمية التى تستحقها فى خصوص أسباب فشل المقاومة بسرعة إذ ما أن انتهت سنة 1881 حتى تم الاحتلال وتمركز الجيش الفرنسى فى جميع البقاع اللهم الا بعض المناطق فى الجنوب التى لم تخضع لنظام الحماية الا سنة 1882 . وهذه الظاهرة تتمثل فى تشتت القيادة أثناء المقاومة ذلك أن كل منطقة لها قيادتها ولقد شعر المقاومون فى الاول بذلك وحاولوا بين 15 و 20 جوان 1881 النظر فى توحيد الجبهة لكنهم اكتفوا ببعث مرسول الى طرابلس حيث الوالى التركى طلبا للنجدة . وهم فى ذلك لم يتمكنوا من تغيير نظرتهم الى الحكم معتقدين دائما أن القيادة لا يمكن أن تكون الا فى يد السلطة الدينية المعترف بها الا وهى الخلافة العثمانية . ولهذا فهم لم يفكروا جديا فى توحيد الصفوف وتواكلوا على فكرة اللجوء الى القوة التركية . حتى عاجلهم جيش الاحتلال بالضربات القاضية فاستكانوا الى حين.

وهكذا نرى أن الاحداث التى عرفها الشعب التونسى فى محنته لها شبه كبير بما لاقاه أهل هذه الارض طيلة القرون من العنت من جراء الغزاة الذين تعاقبوا على البلاد وفى كل مرة نجد نفس الاسباب والمسببات تتلون بحسب الظروف ولكنها باقية ماثلة فى المقاومة الشديدة التى لم ينفك يواجه بها الشعب التونسى كل غاصب دخيل .

وهذا كله دليل على أن الشعب التونسى لم يكن ذلك الشعب الخنوع المستكين الراضى بالذل والهوان بل إن المتولين أمره هم الذين جروه مكرها الى ذاك الوضع. والدليل على ذلك هو أن نظام الحماية لم يجد فراغا فملاه بل وجد بلادا لها حضارتها وتقاليدها ونخبتها وحيويتها ودينها ولغتها . فلم يكن من الهين

تبديل وجتها الحضارية رغم الطرق الجهنمية بل جابهت نظام الحماية حركات قوية تعتمد الحوار والمنطق والكفاءة واذكر من بين هذه الحركات حركة الشباب التونسى والحزب الحر الدستورى القديم والحزب الحر الدستورى الجديد فيما بعد .

كل هذه الحركات لم تزغ عن المسار الاصلى للبلاد وكانت جميعها لا تتنكر للحركة الاصلاحية الاولى بل بقيت متمسكة بالمقومات الاساسية للشخصية التونسية العربية الاسلامية وظهرت فى تركيبة جديدة للمجتمع التونسى خاضعة لعناصر ثلاثة نشيطة متكاملة : سياسية ونقابية وثقافية .

وليس من العجيب أن تتضافر هذه العناصر وتتكامل لتكون القوة الضاربة المطيحة بالاستعمار آخر الامر . فلقد تكونت نخبة مثقفة ما فتئت تناضل من أجل إثبات الذات فى الصحافة وفى النوادى الثقافية وتعمل جاهدة على فتح أعين الشباب لما يتهدد الشخصية التونسية من ذوبان وتذكر بما كان عليه الأجداد من حضارة وعزة . وظهرت أيضا حركة نقابية نشيطة لم تنبهر بما تدفع اليه من ارتباط بالنزعات النقابية العالمية بل كان المحرك لها هو مصلحة الوطن . واستقطبت فى تلك الاثناء هذه الاتجاهات حركة الحزب الحر الدستورى الجديد التى عرفت كيف تتلافى كل أسباب الضعف المعروفة أثناء مقاومة الاستعمار سواء ابان انتصاب الحماية أو بعد ذلك بخمسين سنة فتوفر للكفاح أمران لا بد منهما وهى : ارادة الشعب وقوته من جهة ، ووحدة القيادة وحكمتها من جهة أخرى .

ولقد جسم أبو القاسم الشابى ـ وهو الشاعر الحساس الوطنى ـ هذين المقومين فى بيتين اثنين الأول شائع معروف وهو :

إذا الشعب يوما أراد الحياة   فلا بد أن يستجيب القدر

والثانى لم ينتبه إليه الكثيرون وهو :

أنت فى الكون قوة لم تسسها   فكرة عبقرية ذات بأس

وكان أن وجد الشعب التونسي طيلة الفترة الحاسمة من الكفاح التحريري في شخص الحبيب بورقيبة القيادة الحكيمة التي عرفت كيف تجمع حولها الطاقات وتجعل منها قوة ضاربة هدمت صرح الاستعمار . وكان أن تواصلت هذه القيادة الى اليوم تبني صرح الدولة التونسية الجديدة وتحقق ما لم يتيسر للمصلحين الاولين من أمثال خير الدين التونسي أن يقوموا به قبل الاحتلال وهو المحافظة على الذات والمقومات الاساسية لشخصيتنا العربية الاسلامية من جهة ودفع البلاد في بوتقة التقدم والمعاصرة من جهة أخرى .

وإن الملاحظ النزيه لا يمكن له إلا أن يسجل المكاسب العظيمة التي أمكن للشعب التونسي أن يظفر بها طيلة هذه الحقبة بفضل هذه القدرة العظيمة على المحافظة على التركيبة الاساسية للمجتمع التونسي والحرص على تكاملها ولا إخال السنوات القادمة إلا مبرزة لهذه الحقيقة بفضل وعي كل فئات الشعب التونسي بانه لا نجاة الا في انصهار القوى الحية وتكاملها وتلاؤمها والافلات نهائيا مما ران على الشعب التونسي من دركات طيلة فترات الانحطاط حتى لا نبقى مرددين بيت أبي القاسم :

أنت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمس

البشير بن سلامة

بعد مائة عام من انتصاب الحماية

هل فرضت الحماية على الصادق باي قهرا.. كما يقولون ؟

بقلم : الشاذلي بويحيى

تكاد ظروف انتصاب الحماية الفرنسية على تونس لا تكتسي بالغموض البتة في أذهان الناس : فالتونسيون والفرنسيون يتفقون على هذه الظروف ، والمؤرخون الذين كتبوا عنها سواء منهم الفرنسيون أو التونسيون يتفقون كذلك إجمالا في وصف حالة البلاد التونسية قبل انتصاب الحماية ومطامع الدول الاوربية فيها وتحليل الصراع الظاهر والخفي الذي كان يخوضه نواب هذه الدول ومن كان يحوم حولهم ويعينهم ويؤازرهم من طوائف التجار والانتفاعيين والمغامرين من مواطنيهم وغير مواطنيهم بل ومن التونسيين أيضا. كما يتفق هؤلاء المؤرخون على تحليل الاسباب التي أدت الى انتصاب الحماية وعلى سرد الاحداث التي صحبته سواء في ذلك الاحداث الديبلوماسية أو العسكرية .

ويظهر ذلك جليا في بحثين جامعيين يمكن اعتبارهما نموذجا لمؤلفات هؤلاء المؤرخين والاقتصار عليهما لكونهما يمثلان خلاصة كل ما هو معروف عن هذا الحدث الحاسم في تاريخ البلاد التونسية . وموضوع الاول منهما : « أصول الحماية الفرنسية على تونس » بقلم جان ڤانياج أستاذ التاريخ بتونس سابقا وبجامعة باريس حاليا (1) . بينما اعتنى الثاني : « بانتصاب الحماية الفرنسية على تونس » وهو من تأليف علي المحجوبي أستاذ التاريخ بالجامعة التونسية(2).

---

(1) Jean Ganiage, *Les Origines du Protectorat Français en Tunisie* (1861-1881) Presses Universitaires de France, Paris 1959

(2) Ali Mahjoubi, *l'Etablissement du Protectorat Français en Tunisie* Publications de l'Université de Tunis, 1977.

وتتلخص هذه الظروف أساسا فى تدهور الحالة الاقتصادية بالبلاد التونسية لسوء تصرف مسيريها مع توالى المجاعات والاوبيئة والاضطرابات الداخلية الى حد التجاء حكومة الباى الى الاقتراض المتكرر وعجزها نهائيا عن أداء ما عليها من ديون باهظة مما تسبب فى تدخل الدول الاوربية بدعوى حفظ حقوق مواطنيها الذين اقترضت منهم حكومة الباى. فأحدث الصادق باى بايعاز من فرنسا وايطاليا وانقلترا لجنة مالية دولية تتركب من تونسيين وأوربيين تعرف « بالكومسيون » ترأسها الوزير خير الدين ردحا من الزمن . وقد صارت المتصرف الحقيقى فى مالية البلاد مدة ربع قرن منذ تأسيسها سنة 1870 .

وعندما اضطر خير الدين — رغم جهوده ونجاح إنجازاته — الى التخلى عن الوزارة الكبرى أمام استفحال المعارضة لسياسته الاصلاحية خلفه مصطفى ابن اسماعيل فى ذلك المنصب : فتدهورت أحوال البلاد كلها المالية والسياسية معا .

والحق أن تأسيس اللجنة المالية الدولية — « الكومسيون » — كان بداية تقلص السيادة التونسية عن البلاد فتجسمت فيها المطامع الاوربية . واشتدت فى ذلك المزاحمة بين ايطاليا وفرنسا وقد انسحبت انقلترا من الميدان لفائدة فرنسا بعد اتفاق بين الدولتين . فلم يبق لفرنسا الا أن تجد سببا تبرر به احتلالها البلاد .

وفى يوم 24 أفريل سنة 1881 دخلت الجيوش الفرنسية الى التراب التونسى قادمة من الجزائر بدعوى معاقبة قبائل « خمير » وحفظ التراب الجزائرى من تكرر غاراتها . فاحتل الجنرال لوجرو Le général Logerot مدينة الكاف يوم 26 أفريل واتجه نحو العاصمة التونسية بينما نزل فى غرة ماى فيلق فرنسى Division آخر ببنزرت قادما من مرسى تولون Toulon الحربى بعدما احتل مدينة طبرقة يوم 26 أفريل . ومن بنزرت اتجه الجنرال بريار Bréart نحو تونس وجاء الى قصر باردو فى خفارة من جيشه صحبة القنصل الفرنسى روسطان Roustan على الساعة الرابعة من مساء يوم 12 ماى 1881 وأمهل الباى الى الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم للتوقيع على المعاهدة التى عرضها عليه باسم الحكومة الفرنسية . وجمع الباى وزراءه . وبعد مداولات دامت ساعتين اثنتين فقط ! — امتثل الباى قائلا : إنه يمضى تحت الضغط .

تلك هى — باختصار — الاسباب والاحداث التى أدت الى انتصاب الحماية كما هى معروفة الى حد الآن وكما ترويها كتب التاريخ الفرنسية والتونسية

والاخبار التى تعتمدها هذه الكتب وخلاصتها إذن أن الحكومة الفرنسية فرضت الحماية على الباى فرضا وأن الباى لم ير بدا من إمضائها نظرا الى وجود القوات الفرنسية بكامل الشمال التونسى وحول قصره ببـاردو زيـادة على تهديـد روسطان مصطفى بن اسماعيل باعتقاله واعتقال الباى « كل بمفرده » اذا ما امتنع الباى من الامضاء .

غير أننا نشك فى صحة هذه الرواية وفى هذا السرد للاحداث وفى هـذا الضغط المزعوم على الصادق باى ـ على الاقل فى صورته هذه التى يرويه عليها المؤرخون ـ . وأساس شكنا فى هذه الصورة للاحداث وللضغط الذى يدعيـه البـاى أمـران :

أولهما : هو أن موقف الصادق باى ـ كما يرويه المؤرخون ـ غريب لا يقبله العقل إذ كيف له أن يدعى الضغط عليه يوم 12 ماى بينما لـم يحـاول أيـة محاولة جدية لاجتناب ذلك الضغط المتوقع منذ دخول الجيوش الفرنسية الى التراب التونسى يوم 24 أفريل ؟ فماذا فعـل فى هذه المـدة أى فى عشـرين يومـا تقريبـا ؟

فلئن كان الرجاء ضئيلا مستبعدا فى نجدة من تركيا حامية البلاد الرسمية فما باله لم يحكم الدول الاوربية ولم يشهدها على هذا الاعتـداء ولم يستغـل منافستها فى هذه القضية وخاصة منها ايطاليا لعـرقلة مشـروعها بصـورة قانونية ؟ بل ما باله لم ينتهز فرصة تردد الحكومة الفرنسية ذاتها ومعارضة الرأى العام الفرنسى وجل جرائد فرنسا لهذا المشروع ومن المعلوم أن فرنسا إذذاك ـ حكومة وشعبا ـ لم تزل تعانى تبعة هزيمتها فى حرب 1870 ضد المانيا وتشفق الاشفاق الكبير من كل تبذير قليل أو كثير فى المـال والرجـال مما تسبب فى نفور يكاد يكون عاما من مغامرة استعمارية جديدة ؟ ومعلوم ايضا أن دعاة التدخل المسلح الفرنسى فى تونس إنما هى فئة قليلة نسبيا يمثلها فـى تـونس القنصـل روسطـان وفـى الجـزائـر الكـردينـال لافيجـرى Le Cardinal Lavigerie مع بعض العناصر العسكرية بالجزائر والرأسمالية فى فرنسا .

إن بسط هذا الموضوع قد يطول بنا وهـو ليس مـن غـرضنا . فلنتركـه للمؤرخين اذا هم أرادوا مراجعة نظريتهم بالتعمق فى تحليل موقف الصادق

بـاى وقعوده عن كل محاولة جدية قبل أن يدعى يوم 12 ماى أنه إنما أمضى لأنه لا مناص من الامضاء . ولئن ثبت ذلك الضغط ـ ولا داعى للشك فى وجوده صوريا ـ فسؤالنا هو : كيف يشكو الباى من الضغط بينما كان يتوقعه ولم يحاول التوقى منه ؟ وبعبارة أوضح ألم يكن كل ذلك ـ أى هذا الضغط وهذا التشكى من الضغط ـ مجرد مسرحية غايتها تبرير موقف البـاى أمام الرأى العام التونسى وغير التونسى وأمام التاريخ ؟

ذلك ما لعله يتضح تمام الوضوح عندما نعتبر الامر **الثانى** الذى قلنا إنه من أساس شكنا فى صحة رواية المؤرخين لأحداث يوم 12 ماى 1881 وللضغط المزعوم على الصادق باى . وهذا الامر الثانى هو أن الصادق بـاى عند دخول الجيوش الفرنسية الى التراب التونسى يوم 24 أفريل 1881 أوفـد الى بـاى الامحال وولى عهده على باى الموجود إذذاك بمنطقة جبال « خمير » مبعوثا ليقنعه بأن يوافق على المعاهدة التى ستعرض على الباى .

وقد نجحت مساعى هذا المبعوث نجاحا تاما رغم خطورتها وصعوبتها نظرا الى موقف قبائل « خمير » وعلى باى وعسكره المعادى للفرنسيين إذذاك : فقد قفل على باى بعد هذه الوفادة راجعا بعسكره الى العاصمة ووقف موقف الذل والصغار أمام الجنرال الفرنسى لوجرو Logerot فى مقابلتهما يوم 29 أفريل بسوق الاربعاء (جندوبة اليوم) وامتثل منذ صبيحة اليوم التالى 30 أفريل الى أمر الجنرال الفرنسى بمغادرة المنطقة حالا . وشهد المعارك التى دارت فى ذلك اليوم بقرية « بن بشير » بين قبائل تونسية والجيـوش الفـرنسية دون التدخل بعسكره . وهذا التغير فى سلوك على باى وموقفه من الفرنسيين كان نتيجة التوصيات التى أتته من الصادق باى . فقد أرسل الباى الى عماله فى البلاد يوصيهم بألا يتعرضوا بالقوة الى دخول الفرنسيين . وكـان امتثـالهم لهذه التوصيات يكتسى غالبا صبغة المسرحية التى مثلها الصادق باى يوم 12 ماى إذ أنهم كلما قدمت عليهم الجيوش الفرنسية طلبوا من قائدها شهادة بأنهم إنما سمحوا له بالدخول مكرهين .

قد يكون الداعى الى إصدار الصادق باى هذه الاوامر وهذه التوصيات حرصه على حقن الدماء لعلمه أنه لا يقوى على التعـرض للجيـوش الفـرنسية . لكـن التوصيات التى أرسل بها الى على باى لم تقتصر على عـدم المقـاومة المسلحـة إنما هى توصيات له بقبول المعاهدة التى ستعرضها الحكـومة الفـرنسية على

إمضاء الباى . والذى يؤكد صحة هذه التوصية الخاصة بقبول المعاهدة سلفا هو أن على باى أرسل منذ يوم 10 ماى قبل وصوله الى تونس رسالة الى القنصل الفرنسى روسطان يخبره بأنه يوافق على المعاهدة سلفا . وفى ذلك دليل على أنه كان يعلم أن معاهدة ستعرض على الباى وفى ذلك أيضا امتثال الى أوامر الباى بالموافقة على هذه المعاهدة .

فالصادق باى كان مستعدا منذ شهر أفريل لقبول المعاهدة التى يعلم أنها ستعرض عليه والتى أوصى ولى عهده بقبولها سلفا والتى ادعى يوم 12 ماى 1881 انه اضطر الى التوقيع عليها تحت الضغط .

أما عن هذه المأمورية من الصادق باى الى ولى العهد باى الامحال على باى فقد وجدنا خبرها الصريح فى وثيقة فرنسية سنتعرف بها ونعلن عن اسم مبعوث الباى المكلف بهذه المأمورية فى بحث أنجزناه وهو جاهز للنشر .

الشاذلى بويحيى

ننشر فى الأعداد القادمة

دراسة : د. سليم عمار بعنوان :

« حول مقالة اسحاق بن عمران فى المالنخوليا »

دراسة : سليمان قطاية بعنوان :

« الطب العربى »

قصائد مندسة

بين اللظى والثلج

شعر : يس الحلاج

1 ـ الحيرة والآتي :

زَمَنٌ كَالثَّلْجِ يَمُدُّ يَدَيْهِ وَيَخْنُقُنِي ، أَتضاءلُ مثلَ فُصُوصِ المِلْحِ عَلَى طَبَقٍ مَائِيٍّ ، أَجْلِسُ خَلْفَ خُيُوطِ الشَّمْسِ أُخِيطُ لِجُمْجُمَتِي كَفَنًا ، وَدَمِي مِنْ فَرْطِ السِّجْنِ يَكَادُ ... فَمِنْ أَيْنَ انْفَجَرَتْ أَلْغَامُ الغُرْبَةِ هَذِهِ ، مِنْ أَيْنَ انْفَجَرَتْ ؟

لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ أَنْ أَتَثَاءَبَ أَوْ أَتَشَنَّجَ أَوْ ....وَالكَلِمَاتُ تُوَجِّهُ لِي الطَّعَنَاتِ ، وَتُغْمِدُ فِي كَبِدِي سَيْفًا يَتَكَلَّمُ ـ فِي عِزِّ القَحْطِ ـ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ : يَهْوِي بِالمَطَرِ الفَرَحِيِّ عَلَى الشَّجَرِ المُتَعَلِّقِ بِالوَطَنِ الآتِي ؟ هَلْ أَفْتَحُ مَأْسَاتِي الآنْ ؟

* * *

2 ـ الدائرة :

وَنَكُونُ نَحْنُ بِلاَ أَلَمْ
نَبْكِي وَنَسْتَبْكِي الصَّنَمْ
فِي كُلِّ دَائِرَةٍ يَدٌ
تَمْتَدُّ رَاشِحَةً بِدَمْ
فَنَقُولُ لِلأَعْدَاءِ : لاَ
وَنُضِيفُ تَكْذِيبًا : نَعَمْ
وَنَكُونُ عُمْيًا ، لاَ نَرَى
وَنَظَلُّ نَشْعُرُ بِالنَّدَمْ

3 ـ الفجـوة والسـؤال :

هِيَ العَجْفَاءُ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجْ
تَجِيءُ الآنَ : شَاهِرَةً سُيُوفَ المَوْقِفِ الأَعْرَجْ ..
وَتَضْرِبُ فِي ضَجِيجِ العَصْرِ خَيْمَتَهَا ، فَنَدْخُلُهَا وَلاَ نَخْرُجْ ..

* * *

وَنَجْلِسُ حِينَ تَسْكُنُنَا الهَوَاجِسُ خَلْفَ عُثْمَانْ
فَيَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ، فَجْأَةً إِثْنَانْ
تَهْرُبُ مِنْهُمَا كُلَّ العَصَافِيرِ
وَيَخْتَلِفَانِ .. يَشْتَبِكَانِ .. يَقْتَتِلانِ
حَتَّى مَطْلَعِ الضَّحِكِ المُقَفَّى بِالأَعَاصِيرْ .

* * *

4 ـ دمـي مغلـول إلى عنقـي :

دَمِي العَرَبِيَّ مَغْلُولٌ إِلَى عُنُقِي   وَجُرْحِي نَازِفٌ يَمْتَدّ فِي أُفُقِي
يَدُقّ الضَوْءُ ذاكِرَتِي، فَيُخْجِلُنِي   حُضُورُ الإِنْحِطَاطِ، فَأَرْتَدِي قَلَقِي
تَظَلّ أَصَابِعُ المَوْتَى تُحَرِّكُنِي   وَيَكْبُرُ فِي ظِلالِ هَوَاجِسِي أَرَقِي
أَرَى فِي الشَّارِعِ الخَلْفِيِّ جُمْجُمَةً   وَسَيْفًا يَسْأَلُ السَّيَّافَ عَنْ عُنُقِي
وَيَسْأَلُنِي الدَّمُ العَرَبِيّ عَن وَطَنٍ   فَأَبْكِي ضَاحِكًا ، وَيَضِيق بِى أُفُقِي

* * *

5 ـ زمـن للبكـاء :

افْتَحِي النَّـافِـذَهْ !
هَذِهِ اللَّحَظَاتُ سَنُنْفِقُهَا فِي البُكَـاءْ
إِنَّنَا الآنَ إِثْنَانِ نَبْكِي وَثَالِثُنَا الصَّمْتُ يَبْعَثُ فِينَا قُشَعْرِيرَةَ
النَّارِ حِينَ تَهُبّ الرِّيَـاحُ ..

بِعَيْنَيْكِ أَزْمِنَةٌ مِنْ عَذَابٍ وَعِشْقٍ عَنِيفٍ، وَإِنَّكِ غَامِضَةٌ مِثْلَ صَمْتِي وَإِنَّكِ مُوغِلَةٌ فِي الرَّحِيلِ – النَّزِيفِ، وَإِنَّكِ هَارِبَةٌ مِنْ عُقُوقِ الشَّوَارِعِ وَالنَّاسِ فِي كُلِّ حِينٍ وَإِنَّكِ خَارِجَةٌ مِنَ نَشَازِ المَدِينَةِ فِي كُلِّ حِينٍ، وَإِنَّكِ دَاخِلَةٌ فِي الطُّقُوسِ الحَزِينَةِ فِي كُلِّ حِينٍ .

وَإِنِّي حَزِينٌ، حَزِينٌ، حَزِينْ !.

كَمَا وَجْهكِ الآنَ : أَحْمِلُ أُسْطُورَةَ الآهِ عَبْرَ السِّنِينْ .

* * *

6 ـ لغة عاشق فلسطيني حنكته المآسي :

عَلَى الرَّغمِ مِنْ همْهَمَاتِ الخيول وَإِطْلَالَةَ الرَّعْدِ عَبْرَ الفُصُولْ
تظلّ المواعِيدُ أَرْقَامَ زَيْـــفٍ وَيَبْقَى اخْتِلافُ الهوى وَالمُيُولْ
رَفَعْنَا عَقَائِرَنَا بِـالصُّـرَاخِ فَمَاتَ الصّدى قبل خطّ الوُصُول
وَلَنْ تَطْلَعَ الشّمسُ مادام فِينَا جَفَافُ الصَّحَارى وَقحطُ العقُولْ

* * *

نَدُقّ البنادِيرَ بِاسْمِ الوَطَـــنْ وَنَمْدَحُ باسْمِ الإلاهِ الوَثَـــنْ
وَنَشْهَدُ أَنّ البِلادَ بِخَيْـــرٍ فأسأل : أَيْنَ الضَّحَايَا إِذَنْ ؟
فَشَيْخُ القَبِيلَةِ مَا زَال يَـــزْنَى وَفَوْقَ الجِبَاهِ يَبُـــولُ الزَمَنْ
وَعِنْدَ النّدَاء، يَهُونُ الوَفَاءُ وَبِالإتفَاقِ : نَخُونُ الوَطَنْ !

* * *

يَدِي حَنَّكَتْهَا الحقَائِبْ وَوَجْهِي مَدَى الدَّهْرِ غَائِبْ
أُسَافِرُ فِي كُلِّ حُلْمٍ وَآتِي بِغُرْبَةِ خَائِبْ ،

فَأَجْلِسُ فِي الظِّلِّ مَسْخًا وَتَسْكُنُ رَأْسِي الخَرَائِب

★ ★ ★

دَمِي فِي جَمِيعِ الخَنَادِقْ وَجُرْحِي اخْتَلَى بِالفَنَادِقْ
وإني التَقَيْتُ طَرِيقًا فَحَطَّمْتُ صَمْتَ البَنَادِق
وَأَصْبَحْتُ صَوْتًا عَنِيفًا يُغَنِّي بِلَهْجَةِ صَادِقْ

★ ★ ★

7 ـ إثنينية التكوين والفرح :

أنَا ثُمَّ أنْتَا
نُشَيِّدُ بِالضَّوْءِ بَيْتَا
وَنَقْتُلُ بالحُبِّ مَوتَا
وَنَمْلأُ بِالزَّقْزَقَاتِ الوَطَنْ
وَرَغْمَ رَدَاءَةِ هَذَا الزَّمَنْ
سَنَضْحَكُ .. حَتَّى اخْضِرَارِ الصَّحَارى .

★ ★ ★

8 ـ القلعة المتروكة :

بِنْتُ السُّلْطَانِ مُسَيَّجَةُ العَيْنَيْنِ بِحُلْمٍ وَرْدِيّ
بِنْتُ السُّلْطَانِ مُضَمَّخَةُ الشَّفَتَيْنِ بِكُلِّ رَحِيقٍ حَيّ
تَسْتَيْقِظُ كُلَّ صَبَاحٍ حِينَ تَشَاءُ
وَتَغْفُو حِينَ تَشَاءُ

فَيَطِيب لَهَـا الإغْفَـاءُ ..

* * *

كَانَتْ حَسْنَاءَ كَكُلِّ بَنَاتِ السُّلْطَانْ
تَطْلُبُ فَرْداً يَخْدِمُهَا فَيَكُونُ لَهَا إثْنَانْ
لَكِنِي ، أذْكُرُ فِيهَا أذْكُرُ :
أنَّ غَرِيبـاً مَرَّ بِقُرْبِ حَدِيقَتِهَا الغَنَّاءِ
رَأى عَيْنَيْنِ كَأنَّهُمَا الحَيْرَةْ ..
فَاحْتَارَ ، وَسَارَ عَلَى حَدِّ الحُلْمِ الوَرْدِيِّ
فَطَالَعَهُ الصَّوْتُ الرَّعْدِيِّ
وَأحْبَطَ سَيْـرَهْ ...

* * *

بِنْتُ السُّلْطَانِ لَهَا عَيْنَانِ هُمَا القُضْبَانْ
بَاتَتْ صَحْرَاءَ مِنَ الكَبْتِ الوَحْشِيِّ ، تُسَيِّجُهَا الأحْزَانْ .
حَتَّى انْتَحَرَتْ ...
وَتَغَمَّدَهَا التَّارِيخُ القَاحِلُ بِالنِسْيَانْ ..

* * *

9 ـ قصيدة ركيكة الى ابعد حد :

إنِي فتحتُ عَليكُمُ الكُرْهَ العريض   وَسنَلتقي يوْما علىَ طرفيَ نقيض
وَأكُونُ فِي المَأسَاةِ فَذَّ الإلتِيَاعْ   أطَأ اللَّظى بِجنَاحِ عصْفُورٍ مهيض
فأدينُ وَجهًا لمْ يزَلْ يَهوى الضَّياع   وَفتىً أتى فِي وَجْهِ مَوْلودٍ جهيضْ
وَأوَحِّدُ الأشلاءَ قدرَ المُسْتَطَاعْ   وَأدُقَّ نَهراً مستَحِيلا كَي يفيضْ
فَدَمي اشتَهى زَمنا شهيَ الإرْتِفاعْ   يَستَاءُ مِنْ ماءٍ بلا مجرى يغيضْ

وَيدي اشتهتْ أفقا شديدَ الإتساعْ ترْتاحُ فيه نوارسٌ كالطهرِ بيضْ
هذا الزّمانُ يموءُ من غيرِ انقطاعْ ويجيءُ من مستودعِ امرأةٍ تحيض
وأنا غرستُ أظافري في كلّ باعْ وفتحتُ شُبّاكي على الوردِ الغريض
وسأنتهي..ليظلَّ من بعدي الصّراعْ يمتدّ ضدّ الرّيحِ والطقسِ المريض
فيُهاجرُ المنفى .. وينْحسرُ القِناعْ وتعودُ أسرابُ الحمائمِ كي تبيض

* * *

10 ـ وأشحذ باسمك المنفي ذاكرتي :

.. وَأجْهزُ باسْمِكَ الغَالِي علىَ أسْطُورةِ الرّبّ الخُرافِيّ
وَرَغْمَ ضَرَاوةِ الشّنْقِ الإضَافِيّ
وَرَغْمَ فُحُولَةِ التّجْسِيدِ فِي الشّنْقِ الإضَافِيّ
أشَكّلُ بِاسْمِكَ المَمْنُوعِ يَا سَمْرَاءُ شِبْهَ مَدِينَةٍ مِنْ دَمْ
وَأشْحَذُ بِاسْمِكَ المَنْفِيّ ذَاكِرَتِي
وَتُوقِفُنِي انْبِلاجَةُ فَمْ
لِشَيْخٍ يَمْتَطِي التّارِيخَ مُنْذُ البَدْءِ ..
أضْحَكُ حِينَ يَضْحَكُ ..
وَالصّدَى نَفْسُ الصّدَى فِي عَالَمِ الصُّمْ
وَأمْضِي فِي مُرَاوَغَةِ الحَرِيقِ
وَأرْتَمِي فِي أعْمَقِ الآهِ
فَفِي زَمَنِي تَسَاوَى الكُرْهُ وَالحُبّ
وَفِي زَمَنِي ، زُهُورٌ هَدّهَا الرّعْبُ ...

يس الحلاج

الشعب التونسي ومسألة التجنيس

في الثلث الأول من القرن العشرين

بقلم: محمد أنور بوسنينة

« على أن الاستعمار لم يكن يتمثل فقط في وجود جيش فرنسي وأعوان جندرمة ومراقبين مدنيين ومعمرين ، ولم يكن استعمارا اقتصاديا أو ماديا فحسب ، بل كان يرمي فوق ذلك وأكثر من ذلك ، الى مسخ الشعب التونسي ، والقضاء شيئا فشيئا على لغته وعلى دينه ...

وحرى بالشباب أن يدرك أن أول معركة خاضها بورقيبة هي المعركة ضد التجنيس ، حينما كان تونسيون كثيرون لا يحرجهم اعتناق الجنسية الفرنسية طمعا فيما تدره عليهم من المغانم ، كالثلث الاستعماري وغيره ... » (*)

الذاتية التونسية والحفاظ على مقوماتها هدف كل وطني مخلص ، وكل مدافع عن كرامة هذا الشعب،وعن وجوده وحقه في الحياة الحرة العزيزة؛ولطالما كان هذا المشكل محل مساومة من طرف الاستعمار الغازي ، ومن حين كان الاحتلال ، وإن الذين تصدوا له ، قاوموا ذاك الاتجاه واعتبروا كل مس بذاك المبدإ إنما هو مس بأعز ما يملكه الانسان فيجرد من أصله وجنسه ، ويصبح بالتبعية تابعا منقادا محكوما فيه ، وليس الفرد هو المقصود بل الامة بأكملها كعنصر مستهدف قصد الذوبان في بوتقة الغير والانصهار فيه .

(*) من خطاب محمد مزالي يوم 20 مارس 1981 في الاجتماع المشهود بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لاستقلال تونس .

وإذا ما رجعنا الى الفترة التى عاشتها البلاد التونسية منذ سنة الاحتلال 1881 وأمعنا النظر فيما سبق من تحركات للاستعمار الفرنسى فى إفريقيا بصفة عامة ، كاحتلالها لبلاد الجزائر سنة 1830 ، أى قبل نصف قرن نلاحظ التيار الطاغى على التفكير الاستعمارى ، والممثل فى النزعة الصليبية المسيحية المطلقة قصد تركيز دعائمها فى الاوطان المحتلة ، وإيجاد الظروف السانحة والامكانيات الضخمة لشد أزر الكنيسة ، وتقوية عضدها سياسة لها كى تبث أفكارها وأغراضها ، وبالجملة تمحورت الحملات الدينية فى أشكال مختلفة : فى الجبال والسهول ، والقرى والمدن ، متخذة ألوانا متعددة فى ظاهرها حسن المقصد وطيب الخاطر ، وفى باطنها النية ابيتة قصد التنصير والتفسخ ، وتذويب كيان من قصدوا فردا كان أو أمة ؛ لكن ولله الحمد كانت العقول الراجحة قد تفطنت الى ما هو فى طى الخفاء ، وكشفت عن نوايا أولئك النساء والرجال الذين اتخذوا حتى اللباس القومى وسيلة للخدعة والمراوغة ، وحاولوا بعث المؤسسات التى تخدم أغراضهم فكان ما منها للتعليم ، وكان ما منها للتمريض والاستشفاء ، الى غير ذلك من الوسائل المقنعة ... ولست مطيلا فى هذا الجانب الذى يتطلب دراسة مستفيضة ومستقلة بذاتها ، وإنما أريد ملحا منذ البدء فى هذا التمازج النظرى والعملى بين رجال الدين المسيحيين والسياسيين المستعمرين قصد تنفيذ خطة قصيرة المدى لجلب القوم لحضيرتهم طمعا فى المادة والامكانيات التى توفر لهم ؛ لكن القوم إلا القليل من زاغ عن السبيل السوى ، تفطنوا الى مثل تلك الترهات والاباطيل وقاوموا فكرة التجنيس مقاومة جد عنيفة ، وفى جميع الجبهات ، حتى لا تتحقق أهداف المستعمر وغاياته ومراميه ؛ وقد أبدى ـ أوائل العشرينات ـ الوطنى الغيور الجيلانى الفلاح فى تقديمه لكتاب «الشعب التونسى والتجنس» (1) رأيه فى هذه

---

(1) مطبعة العرب ، 1342 هـ 1924 .

مع الملاحظ وأن « القانون المتعلق باكتساب الجنسية الفرنسية بالبلاد التونسية » صدرت الموافقة عليه من مجلس الشيوخ الفرنسى ومجلس النواب الذى أذن رئيس الجمهورية بنشره وكان تحريره بباريس فى 20 ديسمبر 1922 بامضاء أ ـ مليران ـ وبالاذن منرئيس الجمهورية الفرنسية أمضى رئيس المجلس ووزير الامور الخارجية : ر ـ بوانكارى ـ صاحب الطابع ووزير العدلية ، موريس كوليرا ـ ووزير الحرب والجرايات : ماجينو ـ هذا وقد نشر القانون بالرائد الرسمى (عدد 105) 22 جمادى الاولى 1342 هـ .

المشكلة ملاحظا بأنه لا يغيب عن الاذهان ما وصلت اليه شخصية الأندلسيين بعد ندماج قسم عظيم منهم في جنسية غالبهم ، وآل أمرهم الى فقد قوميتهم الأصلية ، والقضاء على كل مميزاتهم الملية من دين ولغة وأخلاق ، وذهبت مع ذلك نخوتهم الاقتصادية وترقياتهم الباهرة في المضمار العام ، وأصبحت حضارة الاندلس أثرا بعد عين ، بل قد تجزأت مدنيتها ، وانقسمت طرائق قددا ، فكان أثرها لا يزل خالدا بغير بلاد كما هو مشاهد بأمهات مدن المغرب ، وبعض عواصم الشمال الافريقي ، وباقتباس صناعة الاندلسيين واخذها من أحفادهم المهاجرين ومثلها تجارتهم الفنية ، وفلاحتهم التطبيقية التي كانت اعجوبة العالم في تربية الحيوان وازدهار النبات ، على أن هذه المآثر أمست لا تنسب الى ناشريها لانقراض جنسيتهم ، بل الى أقوام آخرين لم يكونوا بالغين سالف التاريخ ذلك الشأو الكبير في ميدان السباق العمراني ...

وبهذا وذاك نلاحظ بأن قضية التجنس قد شغلت بال المفكرين في تلك الفترة الأليمة التي مرت بها البلاد التونسية وساهم العديد من الكتاب والشعراء والمفكرين في بحثها من جميع الجوانب ، مقاومين فكرة تثبيتها في الشعب ، مدافعين عن تاريخ هذه الأمة المجيد ، ووجوب استقرار ذاتيتها بعد مصادقة البرلمان الفرنسي على تعميم التجنيس ، وجعل امكانية اجتيازه سهلة ، وبذلك يسهل على الاستعمار الفرنسي تركيز قدميه في هذه الربوع والى الأبد ، وانبرى العديد لمقاومة هذا الخطر الداهم ، وهذه المعرة الشنيعة الممهدة للشر والخراب ، فكان من بين المتصدين لمقاومة هذا الداء « علي كاهية » صاحب مجلة « الفجر » (2) ، والذي نشر مقاله بعنوان « التجنس » بجريدة « الصواب » بتاريخ 18 محرم 1342 هـ. — 1924 م. ، العدد 401 ، واعتبر المتجنس مرتدا خارجا عن دائرة الاسلام واعتبار أن هذا الدين جاء بمعتقدات وأعمال وأحكام ، ومن المقرر المعلوم أن الدين لا يتجزأ فالاعراض عن بعض ما جاء به الدين كالاعراض عن كله ، وقياسا يجب أن يحكم بردة المتجنس لرفضه الاحكام برمتها ، ويعضد هذا الاستنباط قوله جل من قائل : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

أما الاديب حسين الجزيري فقد أورد في جريدة « النديم » العدد 127 ، 26 محرم 1342 هـ. — 1924 م. قوله :

---

(2) مجلة « الفجر » كان صدورها الاول في حدود سنة 1338 هـ. — 1920 م.

« حق التونسيين أن يمقتوا الفكرة ويقاوموها بكل قوة لديهم لما بين الجنسية والدين من الربط المتين ، بل لأن الجنسية هى الدين نفسه ... إن مقاومتنا لفكرة التجنيس السوداء إنما هى دفاع عن كياننا ، وذود عن ديننا ، وحماية لمعنى وجودنا ... إن لم تكترث الامة بطامة كهذه ، ولم تكن فى نظرها هى القضية الوحيدة التى لا يمكن الاغضاء عنها فما معنى الكيان والحياة؟.. أخرجت لنا الحكومة مسألة التجنيس هذه من جراب عجائبها فى حين انتظار ما طلبنا ورغبنا من الضمانات الواقية لقوميتنا كنشر لغتنا والاهتمام بها ، فكان بدل ذلك ترغيب التونسيين فى الانفصال عن جنسيتهم » .

وفى قصيده المعنون « ثعابين » (3) يرفض المكر والدهاء ويتحسر على الماضى التليد فى قوله :

لم يبق شىء بأيدينا إلا بقية دمع فى مآقينا
نبكى على ثقة نبكى على ورع مضى وأصبح أهلوه ثعابينا
إنا نكاد نجن اليوم من أسف ماذا الذى عن ضروب المكر يسلينا!؟

وحينما يصبح الجشع هو الغاية والهدف يكون الطامع فى نظر الجزيرى :

يبغى الألوف وإن جاءته طائعة تراه من بعدها يبغى الملايينا

وعن اللغة العربية يقول فى قصيد « جاهلو لغتهم » :

وأنت تدرى بأنا عندنا لغة إذا نطقت بها لا يذكر العسل
لها شهود من الأعجام قد شهدوا بحسنها ولها فى الحكم قد عدلوا!

ويتحسر الشاعر وينقم على من يحتقرها بقوله :

وبيننا من بنيها من يحقرها بزعمه أنها شىء به ثقل (4)

وهذا الشاعر أبو الحسن بن شعبان (1897 هـ . – 11 ماى 1963 م.) يشعر فى قراره بمرارة الخيبة التى آل اليها أمر التونسيين فيخاطب بلاده قائلا :

أيا تونس ما لدهرك جارا وجرد تاجك من دره
فخارك بين الورى قد توارى وعيشك آل إلى مره

---

(3) قصيد من ديوان الجزيرى ، ص 116 ، الدار التونسية للنشر 1971 .

(4) المصدر السابق ، ص 97 .

وأبناء تربك أضحوا حيارى وكل يفكر في أمره

ويخشى على قومه من مرارة الواقع الذى انتشر فيه النفاق والتفرق والانقسام فيقول :

فما راج يا قوم غير النفاق وحب التفرق والانقسام
وإنا على ما بنا من شقاق يسير بنا نحو موت زؤام

ولكنه يأمل فى الغد الباسم بعد طرح داء الكسل وتوطيد طريق المعالى بالعمل الجدى المخلص :

لتصبح تونس ذات اعتناق اعز ثوى اليوم تحت الرجام
وإذذاك ينكف دمع المآقى وإذذاك نحيا حياة الكرام (5)

وورد بجريدة « مرشد الأمة » الصادرة يوم 30 من ربيع الأول 1342 هـ. ، العدد مائة ، قول المعلق بدون امضاء (6) : « كان وقع إباحة التجنيس للأمة التونسية شديدا عليها هوله ومصابه ، حيث انه تراه أمامها كفتح باب للانقراض ، فالداخل فيه لا يرجع ، وهكذا يتم الفناء عن قصر أمد أو عن طول فيه ، فتحركت بحذافرها تطالب بغلق ذلك الباب ، ورد هذا التيار الذى لا يقل فعلا بالأقوام عن طوفان قوم نوح وصرصر ثمود ، شأن الامم الحية التى ترى لجنسيتها رفعة ولدينها مكانة ، ولأخلاقها صفاء ، ولحقوقها السياسية والاجتماعية سلطانا على النفوس » .

وما أروعها ملاحظات رشيقة ، وذكرا لحقائق صارخة شديدة الوقع فى القلوب والمهج والارواح قول المعلق :

... « وليس فيما قلنا من ذنب يستوجب غليان مراجل حقد هؤلاء الذين كانوا قبل اليوم يتباعدون عنا ، ولا يرضوننا الا خدمة ويترفعون عن الامتزاج بنا ، وقد طلبوا ـ بلا خجل ـ أن لا يخلط أبناؤنا وأبناؤهم فى صعيد

---

(5) الادب التونسى فى القرن الرابع عشر ، جمع زين العابدين السنوسى ، ج 1 ، ص 54 و 55 ، من قصيد : أنشودة التونسى .

(6) يغلب على الظن أن المقال لصاحب الجريدة سليمان الجادوى مع الملاحظ وأن له مواقف فى هذه المعركة وكتابات عديدة كان صدور هذه الجريدة ابتداء من سنة 1325 هـ. ـ 1907 م.

التعليم ، خوفا من العدوى الاخلاقية حتى قيل : إن أحد الجنرالات قال قبل اليوم في هذا الصدد :

« ان الفرنسي والعربي لو طبخا في مرجل ما امتزجا قط ، وذلك لتباين مواد التركيب الفطري في المواهب والمزاج » .

« فما لهم اليوم لا ينصفوننا اذا عارضنا في تلك الاباحة الاختيارية (التجنيس) وطلبنا نسخ ما مسنا من ذلك القانون ؟ وقد قلنا بعض ما قالو ، وأن لنا دينا وشرفا وتاريخا ولغة ومجدا وحسبا ونسبا وذاتية لا نرضى بها بديلا مع شدة احترامنا لجنسية غيرنا احترام العاقل للحرية والحق » .

ويكتب الطيب بن عيسى صاحب جريدة « الوزير » (7) تعليقا حول « الاحتماء والتجنيس » والفرق بينهما وكان مقاله قبل صدور القانون رسميا واطلاعه عليه كما أشار الى ذلك ملاحظا بأن التجنس في الاصطلاح هو نكران جنس والاعتراف بجنس آخر والاندماج في عنصر غير العنصر الذي ينتمي اليه الانسان بحسب مولده ، فاذا كان الخارج من جنس تونسي اسلامي داخلا في جنس تركي اسلامي — مثلا — فان دخوله وخروجه لايؤثر شيئا على ديانته ما دام النظام سائرا في البلادين وبين الوطنين طبق أنظمة وأحكام اسلامية واحدة . وعلى العكس ، اذا كان الخارج من جنس جزائري اسلامي داخلا في جنس أمريكي مسيحي — افتراضا — فان دخوله وخروجه يؤثر على ديانته لان الاحكام الاسلامية ليست جارية بأمريكا في الاحوال الشخصية الدينية بل بالعكس فكلها منافية لديانته ومطابقة للديانة المسيحية ... وجاء على لسان المصلح الطاهر الحداد (1899 هـ. — 1935 م.) قوله بجريدة « الأمة » (8) ، العدد 50 ، 4 ربيع الثاني 1342 هـ. — 1924 م. :

« فتح باب التجنيس للتونسيين أقل ما فيه أن فرنسا تتمنى أن يصير التونسيون في يوم ما فرنسيين ... وبعد أن يقاوم فكرة اعتبار مشروع قانون التجنيس اختياريا كوضع المحاكم التونسية عدلية أو شرعية حيث لا يلاقي التونسي غير اضاعة الوقت والمال واشتباه الحق وضياعه بسبب نقص القانون واختلال النظام ، يلاحظ الكاتب بأن مسألة التجنيس لم تكن فجأة في سير

(7) جريدة « الوزير » عدد 153 — 13 صفر 1342 هـ.

(8) جريدة « الأمة » ، صاحب امتيازها الحاج علي بن مصطفى ، وكان صدورها ابتداء من سنة 1338 هـ. — 1920 م.

السياسة الفرنسية فهى تسير على مبدإ ثابت هو الالحاق التام ، غير أن سيرها في الماضي اليه كان خفيا وبطيئا بقدر الامكان ـ وما كان ذلك خوفا من التونسيين الذين أخذتهم اذ ذاك غفوة النوم ، فان ذلك لا يقـع فى ذهنهـا الا كخاطرة بسيطة بل لتحققها مقاومة الدول الاوربية لها يوم تعلن فجأة الالحـاق الذى يقضي على امتيازاتهم ويغير مركز فرنسا الاستعماري بالنسبة اليهم . كان هذا في الماضي، أما اليوم فقد انتبه التونسيون على صواعق الحرب الكبرى(9) وعاودتهم اليقظة التى دبت فى الشرقيين جميعا ، وخصوصا المسلمين ، وشجعتهم فى صدورهم وانتشر على وجوههم الشعور القومى ، ذلك الشعور العظيم والهائل، ذلك الشعور الذى يبشر المستضعفين ويهدد المتغلبين ..

التجنيس ـ كمـا قلنا ـ نكث للعهد بدون شك ، وقد علمتنـا السياسـة العملية لأوربا أن المعاهدات حبر على ورق تحترم عند تكافؤ القوى وتداس عند اختلال التوازن بينها ... لقد اغتاظت صحافة الاستعمار على الصحافة التونسية لانها دافعت بشرف عن ملتها المقدسة التى سيحدث فيهـا مشروع التجنيس ثغرة هائلة وخطرا ماحقا من جيش متجنس يكون اليهود فى مقدمته ؛ غير ان الصحافة الفرنسية المغرضة لم يرق لهـا ذلـك ، فأخـذت تهـدد الصحـافة التونسية بقوة الاحتلال الفرنسي ، وأخيرا نشرت جريدة «لا دبيش تونزيان» بلاغا كله تهديد للصحافة التونسية وزهو بما لهم من القوة والسلطة ...

ليس لنا اليوم أمام هذه الاخطار وما تدافـع به غيـر ألسنتنـا وصحفنـا واحساسنا وهى لا تكفى وحدها لرد هذا التيار الاستعمارى لذلك أرى أنهـم سيمرون على هذه الضجة غير مكترثين وهكذا شأنهم فى كل مـا يهمنـا ـ إن الكلمة الجامعة التى نختم بها مقالنا هى : « إن سياسة الاحتلال المادية والمجردة من استعمال العقل لئن كانت تسلب المادة منا ، وتحاول فصلنا عن خصائصنا الادبية والتاريخية ، فانها أيقظت بقدر ذلك عواطفنا وشعورنا القومى يقظـة ستظهر الايام قيمتها ولو بعد حين » ا. هـ.

وانظر معى قوله شعرا يخاطب شعبه ويحذره من مغبـة الوقـوع فى فـخ التجنيـس :

أفق أيها الشعب المهـان فقد أتـوا! إليـك بتجنيس لعلـك تخـدع
وأيـد لهـم بالحس أنـك مـاجـد وإن كنت فى بؤس فجنسك أرفـع

---

(9) الحرب العالمية الاولى 1914 ـ 1918 م.

ولا ترهبن فالخوف موت محقق　يعم بنينا شره المتطلع (١٥)

وقوله فى قصيد آخر :

قوم لقد أنكرونا فى كرامتنا　وجاهرونا بنجوى الأمس فى الحجب
قالوا : خليط بلا جنس مواطنهم　أرض محللة مبتورة النسب
قالوا : حمايتنا أضحت مفوقة　لديهمو عن حمى الاسلام واعجبى !
لقد أهانوا وليس المسلمين فقط　بل الحقيقة والتاريخ بالكذب (١١)

وكثيرة هى تلك المواقف العديدة التى وقفها دفاعا عن كيان هذا الشعب وذاتيته وأصالته ...

ويقول الشاعر محمد الشاذلى خزنة دار (١٢) فى قصيد «تونسى وحسبى» :

أمتى التونسيه　فى نهوض بنوها
نخوتى العربيه　كلكم عارفوها
هى فينا سجيه　ناسبتها ذووها
تونسى وحسبى　اننى تونسى ...
لا أبدل جنسى (١٣)　لا ولا أتردد

---

(١٥) من قصيد بين مارق وغادر ، نشر بمجلة « البدر » (مديرها محمد العربى المشيرقى) الجزء الثالث من المجلد الثالث ، الصادر سنة ١٣٤٢ هـ. — ١٩٢٣ م.

— ونشر أيضا بالمجلد الثانى من كتاب « الادب التونسى فى القرن الرابع عشر » ١٩٢٨ م.

(١١) المصدر السابق (الادب التونسى فى القرن الرابع عشر) ١٩٢٨ م.

(١٢) ٢ صفر ١٢٩٩ هـ. — ديسمبر ١٨٨١ م. ، وفاته ١٢ جانفى ١٩٥٤ م ، من مناضلى الرعيل الاول شق طريقه بعصامية نادرة وكان له نشاط سياسى ملحوظ اعتقل من أجله بسجن باردو عهد الحماية بأمر من السلطات الحاكمة ، وتم رفته من وظيفه فى الجيش بسلك ضباط القصر ، ترك آثارا مطبوعة ومخطوطة .

(١٣) لاحظ الشاعر بقوله :
هنا إشارة الى مسألة التجنس التى طال خوض الأمة فيها واحتجاجها ضد حكومة فرنسا التى أرادت سحب قانونه على التونسيين .

أن يحب الفرنسي لا يحب محمد

* * *

المجنس قالوا : كافر باتفاق
والسكوك ضلال ويح أهل النفاق
ما عساه ينال ما عساه يلاقي

* * *

تونسي وحسبي أنني تونسي
خاسر من تفرنس أين حل مهين
ان يقولوا : تجنس قل لهم : لي دين
مسلم أتحمس في اعتقادي مكين

* * *

تونسي وحسبي أنني تونسي
جاوزوها حدودا بيننا دون حد
ناقضوها عهودا دون أخذ ورد
وكفانا جمودا وكفاهم تعدي (14)

وفي قصيد التجنس يقول :

لست المبدل جنسي كلا ولا أتردد
ان كان يرضي الفرنسي فليس يرضي محمد
قالوا : التجنس كفر فقلت : أقبح كفر
قلب المجنس قفر بل حالك اللون أسود
من منكمو جنسوه ماذا استفاد لعمري
في جنسهم الحقوه كالواو ظلما بعمرو
مذبذبا صيروه به الفريقان يزري
ضاعت عليه ذووه فشمله متبدد

* * *

---

(14) ويلاحظ عن هذه الابيات بقوله :
ذلك أن قانون التجنس مخالف في روحه للمعاهدات الموجودة بين فرنسا وتونس ـ انظر الديوان ـ ص 33 و 35 .
الطبعة الاولى ـ مطبعة العرب 1342 هـ. ـ 1923 م.

ما للشيوخ سكوتا ولم تناضل علينا ؟
ملازمين البيوتا أين الديانة أينا ؟
فلنتركوهم صموتا إنا قد استفتينا

ويختم القصيد بقوله :

من كان منكم يحب مما ألم التوقى
يصدع بما قال : رب له الأوامر تصمد (15)

ويتحسر الشيخ سالم بن حميدة الأكودى (16) على الوضع الذى تردى فيه الاسلام والمسلمون نتيجة محنة التجنيس فيقول فى قصيد بعنوان « واها » :

فهذا كتاب الله صار انتشاره به من سهام المصلحين فتور
وهذا لسان الدين ينهض للفنا به فى مرائى المصلحين قصور
وذاك نظام الشرع ينهد صرحه بهذا نظام الجنس ظل يخور
كفى أمة الاسلام تيها وغفلة وراقب خداع البرق فهو غرور (17)

ويدعو دعوة حارة مخلصة الى الجهاد والوقوف فى وجه الماكرين داعين للعز والعيش فى ظله :

فهل من مسلمين يعز عنهم ضياع مفاخر السلف العظام
فيلقون النفوس الى جهاد يصان بفضلها دين التهامى
ويفنون البنين وكل مال ليحيوا مجد آباء عظام

---

(15) المصدر السابق ، ص 36 ـ 37 .

(16) خريج الزيتونة وهو من مواليد أكودة قرب مدينة سوسة ، كان من رفاق الحداد وساهم بقسط وافر فى الدفاع عن الذاتية التونسية ووقف بداية من سنة 1909 م. ضد دعاة الانسلاخ عن المحاكم التونسية ففصل من وظيفه كمعلم واشتهر بقوة المزاج والعاطفة والنبوغ فى الخطابة المؤثرة ... توفى سنة 1961 م.
انظر كتابه : « الزهريات » تحقيق وتقديم محمد الحبيب عباس .
انظر أيضا كتاب : « شخصيات وتيارات » لأحمد خالد . دراسة : راجح ابراهيم وسالم بن حميدة فى جدلية بين القديم والحديث ، ص 125 .

(17) الادب التونسى فى القرن الرابع عشر ، المجلد الاول 1927 م. مطبعة العرب ، ص 299 .

فخير للفتى موت بعز من الموت المجدد والسقام
فما عاش الذليل بفضل ذل ولا مات العزيز من الصدام (18)

إن الحديث يطول عن هذه المعركة معركة الذات والكيان واثبات الأصالة وتعميق جذور الشعب بايمانه الحق ولغته الأصيلة وتراثه المجيد الخالد لكن حسبنا أن نسرع فى البسط قدر الامكان حتى تتبلور المشكلة فى اطارها التاريخى العام وربطها بالجو السائد سواء بتونس أو بشمال افريقيا عموما .

وما حادثة 5 أفريل الشهيرة سنة 1922 م. – 9 شعبان 1340 هـ. إلا دليل على ما ذكرنا فقد أبرق الوطنى الغيور الحبيب بورقيبة الى المقيم العام الفرنسى « لوسيان سان » محتجا على تصرفاته المشينة القاتلة للفكر وحرية الرأى والتعبير بتعطيله جريدة « لصواب » لمناصرتها مطالب الشعب التونسى فى الحرية والانعتاق ، فكانت جرأة وشجاعة المجاهد الاكبر فى ذاك الحين مبعث اندهاش فى إدارة معهد « الليسى كارنو » حيث كان تلميذا فعوقب على صنيعه ومبادرته الرائدة .

إن سلوك سياسة تعمير البلاد التونسية وفرنستها وصدور قانون فرنسى فى ديسمبر 1923 يسرا اعتناق الجنسية الفرنسية ، وقد وقع إقرار وصلوحية تنفيذه من طرف المقيم العام الفرنسى فى جانفى 1924 .

ثم كانت رغبة سلطات الحماية فى نصب تمثال للكاردينال لافيجرى فى مدخل المدينة العتيقة بتونس بالمكان المواجه لباب البحر والتمثال يمثله واقفا بيد حاملا كتاب الانجيل ، وبالاخرى الصليب المعقف ، وقد كان لهذا الصنيع صداه البعيد فى نفوس الاحرار من الوطنيين ، فغضبوا للامر وثاروا عليه ، واعتبروه تحديا لمشاعرهم فخرجوا متظاهرين محتجين ، وحاولوا تحطيمه لكن تصدت لهم سلطات الحماية وزجت بالكثير منهم فى السجون والمنافى وفى الأثناء التأم اجتماع بأحرار بلدة السرس للاحتجاج على صدور أوامر التجنيس وتم إرسال برقية باسم أحمد الدرعى والطيب العمرى الى الباى محمد الحبيب حوت ما يلى :

« سكان السرس مجمعون على خطورة قرار التجنيس ويطلبون بتوقيفه لأنه يجعل ملككم :

ألقاب سلطنة فى غير مملكة كالهر يحكى انتفاخا صوله الأسد»

(18) المصدر السابق ، ص 298 .

فحوكما من أجل تلك البرقية لدى الدائرة الجنائية بتونس وصدر ضدهما حكم بالسجن مدة ستة أشهر مع تأجيل التنفيذ .

وفى الأثناء كانت هناك حركة من الشبان وفى مقدمتهم الحبيب بورقيبة تناهض ذاك المسعى للتفرنس والذوبان وتقاوم مثل تلك الترهات الباطلة والأكاذيب الملفقة وانبرت تحرر فى صحيحة « حركة صوت التونسى » باللسان الفرنسى فكثر الاقبال عليها وأصبحت أكثر مقالاتها تعرب وتنشر بالعربية وكان صدورها سابقا بسنة عن « المؤتمر الافخارستى » الذى التأم بقرطاج فيما بين 7 و 11 ماى 1930 ، واعتبره المستعمرون حملة صليبية متجددة ، فتألم الشعب لهذا الصنيع واحتج على وقوعه ، وخرجت المظاهرات فى الشوارع منددة بالمستعمر وأذنابه ، ناقمة عليه وساخطة ، وفى الاخير وكالعادة كان الانتقام والتشفى من العناصر الوطنية بالتنكيل والسجن .

وفى الأثناء وبالتحديد بالمغرب الاقصى كان صدور الظهير البربرى المؤرخ فى 16 ماى 1930 حيث وقع بمقتضاه إخراج البرابرة المسلمين من قوانين إخوانهم المغاربة ومن حدود النظم والقوانين الاسلامية ، فكانت هناك حوادث دامية تناقلت أخبارها الصحف وتألمت لها كل لبلدان الاسلامية قاطبة ، وفى تونس بدأت سلطات الحماية فى الاستعداد للاحتفال فى سنة 1931 بمرور خمسين سنة على احتلالها للبلاد إلا أن تحركات الوطنيين الاحرار ونشاطهم المتواصل وفى مقدمتهم الرئيس الحبيب بورقيبة حال دون نجاح الخطة فعدلت سلطات الحماية عن القيام بمثل هذا المهرجان المزرى وتم الاقتصار على قيام رئيس الجمهورية الفرنسية بأداء زيارة لتونس فى شهر أفريل من السنة ذاتها ...

وبقيت سلطات الحماية تتحين الفرص كى تخلق تعلات وأعذارا ووسائل للمزيد من الضغط على المشاعر والنفوس وخلق روح التذبذب والانشقاق والتفرق وما كانت سنة 1350 هـ . ـ 1932 م. حتى ظهرت الرغبة فى إقامة مؤتمر أطلق عليه اسم (مؤتمر اللغة العربية) خصص له البرلمان الفرنسى ما قدره مليونا من الفرنكات كل هذا بسعى من المستشرق الفرنسى « ويليام مرساى » والهدف والغاية من انعقاده فصل شمال افريقيا أو بالاحرى المغرب العربى عن بقية البلاد العربية الاخرى وقد أشرف على جلسته الافتتاحية المقيم العام الفرنسى « منصرون » وكان ذلك بقصر الجمعيات بتونس وقد شارك فيه بعض من تعتمد عليهم فرنسا بالمغرب الاقصى والجزائر ، وفى احدى

الجلسات هاجم المستشرق المذكور اللغة العربية واعتبرها قاصرة لان تكون لغة علم وحضارة واقترح فكرة استعمال اللغة العامية كوسيلة للتخاطب والتعامل بشمال افريقيا قاطبة ، وبوقوف الشيخ أحمد بيرم فى وجهه ورد كيده الى نحره ودفاعه المستميت عن العربية انتهى الامر الى اخفاق ذلك المؤتمر حيث لم يصدر أى قرار بات ، ونتيجة لهذا الفشل الذريع تم وضع العراقيل فى سبيل أحمد بيرم الى درجة إعفائه من منصبه بصفته مباشرا لخطة شيخ الاسلام (19) .

ويقف فى الاثناء الشاعر الاديب صالح السويسى القيروانى (20) مخاطبا بنى قومه ملاحظا ما نال هذه اللغة العزيزة من ضعف ووهن وقد زهد فيها أبناؤها مشيرا الى وجوب العناية بها فى إطار النهضة الشاملة :

درست معالم مجدها وتجردت عن رونق ومحاسن نضرات
عظم السقام بها وطال أنينها وتململت من شدة العثرات
وبدت بأسوإ حالة بين الورى حيث البنون بأربع الغفلات

إلى أن يقول :

لغة الكتاب هى الحياة لكل من يبغى الحياة ومن لنا بحياة ؟ (21)

وفى قصيد آخر يعاتب رجال الدين الذين لم يهتموا بالشعب واصلاحه لا تعنيهم إلا مصالحهم الخاصة قائلا :

يا من سموا بشريعة المختار وبهم تثار حنادس الأفكار
كم تلتهون بأصفر الدينار والمسلمون بأربع الخسران !؟ (22)

وهكذا وفى ذات السنة أعنى فى نوفمبر 1932 أسس المجاهد الاكبر جريدة « العمل التونسى » باللسان الفرنسى فكان للمقالات التى حررها صداها

---

(19) اعتبرت خطته قائمة الذات إثر وفاته بأمر من الباى محمد المنصف بتاريخ 15 شعبان 1361 هـ. — 27 أوت 1942 م.

(20) 1879 هـ. — 1941 م.

(21) انظر كتاب : « فى الادب التونسى » محمد الحليوى ، الدار التونسية للنشر 1969 ، ص 122 .

(22) المصدر السابق ، ص 123 .

البعيد فى نفوس الأحرار وتحركت سواكن الشعب وازدادت نقمته على الغاصب المحتل يوما بعد يوم الى أن تم إيقافها عن الصدور فيموفى ماى1933 وعمت البلاد موجة من السخط والكراهية ضد المستعمر وأذنابه وانطلقت من مدينة بنزرت حيث توفى متجنس وطفل ابن متجنس ، فكان الرفض التام الجازم لدفنهما بالمقبرة الاسلامية ؛ وقد أفتى مفتى المدينة آنذاك الشيخ ادريس الشريف بدفن الطفل بالمقبرة الاسلامية ومنع دفن الرجل بها وتم الامر كذلك ، وشاع الخبر فى أنحاء البلاد التونسية وقامت اضطرابات ومصادمات دامية مع الجند الفرنسى بالمنستير فخرج الأحرار نساء ورجالا فى سخط عارم لمنع دفن المتجنس بالمقبرة الاسلامية هناك فكانت المواجهة والتصادم مع الجيش الفرنسى المدجج بمختلف الأسلحة وسالت الدماء الزكية حتى انتهى الأمر فى النهاية من الملحمة الى إذعان سلطات الحماية بالأمر الواقع وترك المتجنس المتوفى يوارى فى مقبرة خاصة بالمتجنسين وكان المحرك والداعى للثورة على هذا التعدى الزعيم الشاب الحبيب بورقيبة الذى أعلنها صريحة مدوية بالامكان للخونة فوق وتحت أديم أرض تونس الطاهرة وانتشرت شرارات العصيان بتونس العاصمة فكان القمع والكبت وعمت الفوضى البلاد من أقصاها الى أقصاها . وفى ذى الحجة 1351 هـ ـ أفريل 1933 م. تدخلت حكومة الحماية بواسطة الوزارة الكبرى باستفتاء المجلس الشرعى الأعلى بتونس وكان على قسمه الحنفى شيخ الاسلام محمد بن يوسف وعلى رأس قسمه المالكى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذى كان يتولى فى نفس الحين خطة مدير للجامع الاعظم وفروعه وأفتت أغلبية أعضاء القسمين بأن التجنس لا يخرج المسلم عن دينه واعتبار أن توبة المتجنس تقبل . فكانت تلك الفتوى منطلق الثورة على مثل هذا التصرف والسخط على المتجنسين والتنديد بمن ييسر لهم سبل الحياة فى المجموعة القومية ، وآل الامر فى النهاية الى احداث مقابر خاصة بهم وإعفاء الشيخ الطاهر بن عاشور من خطته كمدير للجامع الاعظم ... وبانتهاء تلك السنة المذكورة الحافلة بالاحداث المؤلمة والتذبذب وبالانهزامية كان فى بداية السنة الموالية وبالضبط فى حدود يوم 2 مارس 1934 انبعاث الحزب الدستورى الجديد بقيادة الرئيس الحبيب بورقيبة قصد وضع منهاج واضح المعالم للسير فى مرحلة جديدة من الكفاح الوطنى عميقة الجذور بينة الغايات والاهداف .

وفى الجزائر كان المصلح عبد الحميد بن باديس يشع بفكره الثاقب وايمانه الصحيح ويتجول فى انحاء البلاد مجاهدا بالليل والنهار قصد مقاومة التفسخ والذوبان صارخا بقوله :

شعب الجزائر مسلم والى العروبة ينتسب
من قال : حاد عن اصله أو قال : مات فقد كذب
أو رام إدماجا له رام المحال من الطلب (23)

وقد سارت هذه الابيات على الالسن ورددتها وما زالت أجيال الجزائر الصاعدة في حمية وحماس شديدين ورغبة في تحقيق آمال ذاك الرجل الفذ والعالم المخلص لله ولدينه ووطنه .

وما أروعه تضامنا من أقصى بلاد الهند حينما بلغ صدى مسألة التجنيس تلك الربوع واهتمت الصحافة هناك بالمشكلة من جميع الوجوه الدينية والقومية والاجتماعية والسياسية واعتبار هذا الباب ماسا بكيان البلاد السياسي وقاضيا على القومية التونسية بالموت والفناء فاهتمت بالموضوع صحيفة « نجات » التي كانت تصدر ببنجور من أعمال الهند وكذلك كتبت جريدة « الخلافة الكبرى » الصادرة ببمباي بعدد 14 من الجزء الثالث المؤرخ في 11 جمادى الآخر وفي 18 جانفي 1342 هـ. ــ 1924 م. مقالا ضافيا مع الملاحظ أن الصحيفة المذكورة نددت بشدة عن سكوت رجال الدين التونسيين حول هذه المسألة الخطيرة وقامت مع صحيفة « نجات » باستفتاء علماء الهند في حكم التجنيس دينا وكان جواب أحد فطاحل علماء الهند الامام تاج الدين بن عبد العزيز الحيدر أبادي الهندي في منع التجنيس وانه كفر مذيلا فتواه بنقل عن الزيلعي والدر المختار ومشيرا الى فتوى قديمة كانت صدرت من علماء تونسيين في كفر المتجنس بجنسية المخالفين له في الدين وقد ذكر أسماءهم وهم من يأتي :

أحمد بن الخوجة : شيخ الاسلام ــ حسن عباس : مفتي ــ محمد بيرم : مفتي ــ الشاذلي بن القاضي : مفتي ــ مصطفى رضوان : مدرس (24) .

---

(23) الأبيات من قصيد ألقاه ابن باديس بقسنطينة في حفل نظمته جمعية التربية والتعليم بمناسبة المولد النبوي سنة 1356 هـ. ــ 1937 م. ومعروف عن هذا المجاهد (1889 هـ. ــ 1940 م.) أنه كان من رواد الاصلاح بالجزائر ومن أكبر الدعاة الى الحفاظ على اسلامها وعروبتها ونشر اللغة العربية في ظروف كانت البلاد تواجه فيها مؤامرة الاندماج والذوبان وهو من مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين صحبة رفيقه الشيخ محمد البشير الابراهيمي .

(24) تكون الفترة التي تولى فيها هؤلاء الشيوخ أواخر القرن التاسع عشر حيث كانت لهم فتوى في نفس الموضوع بتاريخ 29 جمادى الاولى 1224 هـ. ــ 1877 م.

وقد كان تعليق جريدة « مرشد الأمة » الصادرة بتاريخ 12 رجب 1342 هـ. (عدد 103) حول هذا الموقف بما يلي :

« لا نعلم من أين اتصل هذا العالم الجليل بنص هذه الفتوى التى بخل بها علماء تونس الحاضرون عن الامة حتى اتخذ سكوتهم حجة على أن المسألة لا تمس بالدين » (25) .

وأوردت الصحيفة المذكورة نص احتجاج ضد مشروع التجنيس وجهته جريدة « الخلافة » الى الشعب الفرنسى على لسان مسلمى الهند وفحواه كما يلى :

« إن مشروع التجنيس بتونس أغضب العالم الاسلامى وخصوصا مسلمى الهند الذين يواصلون الاحتجاج ضد إجرائه للرابطة الاسلامية بينها وبين الأمة التونسية وتعجب بافراط شذوذ الحكومة الفرنسية بهذا القانون عن بقية الدول الاستعمارية كدولة بريطانيا التى لها فى الهند ثلاثة قرون ولم تلتفت لمحاولة اجراء عمل كهذا » ا. هـ.

أخيرا وبعد هذه البسطة لا يسعنا فى الآخر إلا أن نقف إجلالا لكل من قاوم الطغمة الحاكمة وتحدى نواياها الخسيسة الرامية الى طمس الشخصية التونسية وكيان الشعب الأبى المعتز بدينه وأصالته فى العروبة والايمان الحق القويم ، وهكذا وفى النهاية انبلج الصبح الوضاء وتم البعث فكان النصر للأمة والاندحار للمستبد الظالم الساخر بأنات الشعب المستضعف الذى آل الامر له فى خاتمة الملحمة وكما قيل :

هى سنة المحتل فى كل العصور وما تعد
فشأنه لن يستبد وشأننا أن نستعد

محمد أنور بوسنينة

انظر جريدة « المبشر » (مديرها أحمد الجزيرى) عدد 19 ـ 18 ربيع الثانى 1342 هـ.
مقال : مسالة التجنس (فتوى رجال الشرع) .

(25) يقول أحمد الدرعى فى كتابه : « حياة الطاهر الحداد » صفحة 43 : « وقد استفتى الشعب الشيوخ فى مسألة التجنيس فلم يفتوا واستفتتهم الحكومة فى إمكان توبة المتجنس فأفتوها بما شاءت ولكن الشعب قد أفتى لنفسه فى دينه وضرب بكلام مصابيح الظلام عرض الحائط واعتمد على ضميره الذى يوحى اليه أنه لا يمكن أن يكون رجل من غير المسلمين على المسلمين » .

قصائد قصيرة

شعر : محيي الدين خريف

● الصخرة المستحيلة :

نصفُ قرنٍ ولمسُ أصابعِها في ضلوعي نَغَمْ
نصفُ قرنٍ مضى ..
وهي تقذفُ في داخلي بالحممْ
عرّفتنا العبيد بساحة مكةَ
يجلدُنا السَّوط حتى العظامْ
عرّفتنا السّلام شريداً
يذبّحُ باسم السلامْ
عرّفتنا الحمام ومن ذا يشكّ بأمر الحمامْ ؟
ولكن فمِنْ أين للصخرةِ المستحيلهْ ..
بأنْ تتزحزح وهي كما قد عرفتم ثقيلهْ ؟

★ ★ ★

● رائحة الأمومة :

قبلَها كانَ نهرُ الصّباحِ يسيرُ وئيداً وئيداً
وينصبّ فيّ
أنا الطفلُ في كلّ آنٍ وكلّ زمانٍ
ومنْ بعدها جفّ نهرُ الصّباحْ

وأصبحتِ الشمسُ تجمعُنا مرتَيْنْ
مـرّة للغـدوّ
وأخرى الى حضنِها في الـرّواحْ

* * *

● **حكـايـة وجهها :**

قال لي : وجهُـها
صورتي في الميـاهْ
فمسحت الزّجاجَ لأشربَ ماءَ الزّجاجْ
فـاذا المـاءُ قد جفّ قبل وصول الشفاهْ
البحارُ تفتّشُ عَنْ وجهها في المياهْ
والمياهُ ، المياهُ ، المياهْ
لم تزلْ تحجبُ الوجهَ
وهي تردّدُ لحنَ الحياةَ

* * *

● **غبـار الشعـوب :**

للشعوب الغبارُ وحزنُ المسَاءْ
ولها الغارُ إنْ كسّرتْ جذعَ شَجْرَهْ
قلت للجدّ مَرّهْ :
أتموت الشعوب اذا مُزجتْ بالترابْ ؟
وصارتْ جرارْ
قال : لا سوفَ تُملأُ بالماءْ
حتى تسافرَ في الإخْضرارْ .
عندها تستطيل الغصونْ
وتغلّ مواسمنا بالثّمارْ

محيي الدين خريف

دوْر ابن أبي الضّياف في إبراز الشخصيّة التونسيّة

بقلم : د. الهادي حموده الغزي

① إذا كان الحديث (*) يتناول دور ابن أبى الضياف فى ابراز الشخصية التونسية فمن الطبيعى ان لا نسرع بالخوض فيه الا بعد ان نقف قليلا عند كلمة « الشخصية » دلالة ومفهوما ، وعن المقصود من ربط صاحب الاتحاف بمفهوم الدورية لايقاظ الشخصية التونسية ، نشدانا للمحافظة عليها وبالتالى انطلاقا تأصيليا فى النماء .

ان كلمة شخصية فى نسبتها هذه ثابتة الى جذر المادة الذى هو شخص ومعناه ارتفع وظهر ، كما فى اللسان والشخص بالتسكين سواء الانسان أى ذاته وجسمانه . اذا عرفنا هذا ، فالشخصية اذن صفة بطريق النسبة اللغوية الى مادة « شخص » ولا شك انها تدل على الصفات والاحوال ، والاشياء الخاصة بالشخص فنقول : هذه الامور شخصية أى انها أمور خاصة بالشخص مقصورة عليه لا تتجاوزه وبذلك تميزه بما انضاف اليه زيادة وظهورا،وفي هذا إلحاح الى مفهوم النسبة فى هذا الاصل اللغوى ، اما فى معناه المحلى أو الاجتماعى الخاص فالمعنى المقصود هو ان لتونس من المواقف والمذاهب الحياتية والقيم ما يجعلها تتميز عن غيرها وتنفرد . والمعايير نسبية كما نعلم ، ومعنى هذا ان لتونس من الخاصيات والمبادىء ما يجعل لها كيانا قائم الذات عبر تاريخها الطويل ، فكرا وسياسة واجتماعا ومتلائمة تبتعد بها عن التبعية المضللة والذوبان فى كيانات أخرى مشبوهة أو حتى غير مشبوهة .

(*) بحث ألقى فى ملتقى ابن أبى الضياف بسليانة وينشر لأول مرة .
(1) انظر اللسان فصل الشين حرف الصاد .

ولا شك ان الحديث عن تحديد مفهوم الشخصية يجرنا الى الحديث عن تحديد مفهوم القومية والاقليمية فاذا قلنا : دور ابن أبى الضياف فى ابراز الشخصية التونسية ألم نكن كأنا قلنا : دور ابن أبى الضياف فى ابراز القومية التونسية ؟ **هذا اذا سلمنا جدلا بأن لتونس قومية خاصة بها .**

لا شك ان بين التعبيرين نسبا قويا لكنه لا يصل الى درجة التماثل اذ فى التعبيرين ما يذكرنا بالمفارقات بين افراد الاسرة الواحدة بالرغم من وجود الاصول الطبيعية المتشابكة أو قل : المتحدة ، على ان تلك المفارقات لا تنفى وحدة الروابط بينما فى التعبير الثانى ينصب البحث عن الجذور والاصول لتلك الاسرة نفسها ومن هنا نستطيع ان نقرر ان بين التعبيرين خصوصا وعموما اذ بامكاننا وصف الشخصية بالقومية فنقول : هذه شخصية قومية اى ان هناك الشخصية المنتسبة للمفهوم القومى انتماء **ليست شخصية انفصالية** نافية لذلك الانتماء فى حين لا نستطيع أو قل يتعذر علينا ان نقول : هذه القومية الشخصية لما سبق ان أشرنا .

اما الاقليمية فانها نسبة الى ذات كالشخصية ولكن هذه الذات اطار ظرفى يستوجب مفهوم الشخصية لتشمله بصورة اتحادية أو ملابستية لا تصل الى هذه الدرجة وتؤدى مفهوم المحدودية فى اطار جغرافى قد يصل بها الى معطيات تعصبية انتمائية لان الصفات الاقليمية قد لا تقدم لنا مفاهيم تجديدية بقدر ما تقدم لنا مفاهيم خارجية وأكاد أقول جاهزة وأكثر محدودية بسبب ما توحى به كلمة إقليم من ايماءات ظرفية .

وهذا المفهوم هو الذى نجد بداياته فى الحقل الادبى عند الثعالبى فى « يتيمة الدهر » حيث نظر الى مفاهيم اقليمية فيما تعرض له من تصنيف لشخصيات كتابه بينما نجد النسبة للمفهوم الثانى بدايات لعل اظهرها الدراسات التى أقيمت حول المتنبى وأبعاد قوافيه وهو الاتجاه الذى سار فيه ساطع الحصرى وتفرد به أو كاد ، وكان أبو القاسم كرو قد شغل بهذا الموضوع وقتئذ . ويبقى لنا بعد ذلك المفهوم الاول الذى هو عليه مدار بحثنا وهو الذى سار فى خطوطه بالموازاة باحثون كثيرون امثال جواد ظاهر وابراهيم الوائلى ومحمد كامل حسين وأمين الخولى واستهوى العقاد وبعض معاصريه فترة من الزمن ، ولعله اتجاه سليم باعتباره مرحلة تحضيرية معمقة للوصول الى ما يسمونه بالشخصية القومية .

وعلى هذا فنحن عندما نقول : « دور ابن أبي الضياف في ابراز الشخصية التونسية » فاننا قد لا نستطيع ان نقرر الا ان هذه الشخصية اطار أو طابع خاص بالشعب التونسي في رقعة جغرافية متكاملة تمت بالاسلام والعربية واستعمالنا العبارات تمت للاشعار بالرصيد المتقدم في الحلقات التاريخية المتعاقبة من قرطاج الى العصر الحاضر ، وفي هذا الاتجاه بعد كامل عن مفاهيم الانفصالية وان كانت تأخذ بالجانب الاقليمي ولكنها ايضا تأخذ بالجانب القومي فان شعبا كالشعب التونسي يضم في ملفه الحضاري أمثال حنبعل ويوغرطة وطارق بن زياد وسحنون وابن خلدون وابن عرفة وامثالهم حتى العصر الحديث لا يمكن ان يوصف في بعث شخصيته بالانفصالية حتى ولو انعكست فيها ظلال إقليمية فيها من المبادىء والكليات ما يجعلها أساسية عند كل بحث لان بحثنا والحالة هذه بحث تكاملي وأساسي عند كل شعب ينتمي الى هذه الامة .

واذن ، فما دور ابن ابي الضياف في ابراز الشخصية التونسية ؟ وهل بامكاننا تحسسها ؟ لعل أهم ما ترك لنا ابن أبي الضياف من آثار فاعلة هو اتحافه المهتم فيه الى حد كبير بنفض الغبار وأيضا الكشف عن الشخصية التونسية وانعاشها ببعثها المتأصل ، ولقد اعتمد في تبويب كتابه على العامل السياسي باعتبار الكتاب تاريخي الموضوع سياسي الطابع متوخيا من حيث الاسلوب ، طريقة الايراد والترديد بين التحليل والتعليق واستخلاص للعبر مقتصدا في احكامه يجمع بين حيطة العالم ورهافة حس الناقد مستهديا في كل ذلك بكثير من قواعد المدرسة الخلدونية في النقد التاريخي وأصول علم العمران البشري .

ويظهر ان ماضي تونس الاسلامي وحاضرها العثماني يشده شدا قويا مما حدا به الى ان يقصر اهتمامه على البلاد التونسية ، وعلى الاخص منها الفترة الاسلامية ، متغافلا عن الفترات السابقة اما لعدم تصور كاف لتاريخ تونس القديم أو لنظرية درج عليها ، وآمن بها فلذلك عمد مباشرة الى التاريخ لتونس الاسلام ، انطلاقا من عصر الفتح وابتداء بعصر الولاية وهو عنده وهذا الواقع عصر التبعية الكاملة ثم عهد الامراء المستقلين ومن عناوين الابواب التي انعقد بها الكتاب نتبين ان ابن أبي الضياف لا تعنيه كثيرا تبعية تونس الاسمية ويرى فيها نظام المملكة المستقلة مثل : بيت الملك لبني الأغلب ، بيت الملك لبني عبيد الخ ، مع العلم ان بني الأغلب مثلا لا يتمتعون الا بالاستقلال الداخلي في كنف الخلافة العباسية ومثلهم الصنهاجيون فانهم كانوا ولاة لبني عبيد وقل ذلك أيضا في بيت الملك لبني حفص قبل استقلالهم عن المغرب الاقصى

وكأني بصاحب الاتحاف لا يعنيه الشكل الاعتباري في السياسة بقدر ما يعنيه واقعها وهو في هذه الحال بالنسبة لتونس واقع استقلالي والشخصية التونسية فيه قائمة ، ذلك ان اي حاكم من أولئك الحكام الامراء لا تثبت له شرعية ولا يتم له اعتراف الا بعد تزكيته من قبل أولي الحل والعقد في البلاد ساسة وعسكريين وعلماء وما لم تتم له البيعة فان ولايته ليست بشيء وان زكاه الخليفة أو امضاه السلطان ولذلك درجت بيوت الملك والامراء في تونس على أخذ البيعة من الشعب فان تمت تم الحكم ومضت السيادة والا فلا سيادة ولا حكم ، وهكذا اصبحت البيعة اطارا للحكم ، وبندا لا يمكن التخلي عنه تحافظ عليه تونس محافظتها على وحدة المذهب والسنة حتى ان الوالي أو الامير اذا ما انتقض عليه فان انسحابه مندحرا ، ثم رجوعه الى الحكم منتصرا يقتضي تجديد البيعة له حتى تتجدد شرعيته .

هذه هي هيكلية الكتاب عامة اما فيما بعد فان صاحب الاتحاف اظهر انه متمسك بالمدرسة التونسية في التاريخ والعمران البشري مقيم الدليل على ان لتونس طابعها بل وشخصيتها في ميدان العلم والبحث فكان كتابه امتدادا من حيث المنهجية العامة لتاريخ ابن خلدون ، ولما كان هذا الاخير بنى كتابه « العبر » على مقدمة وموضوع فكذلك احمد ابن أبي الضياف بنى اتحافه على مقدمة وموضوع لكنه ـ على خلاف ابن خلدون ـ اقتصر على تاريخ تونس الاسلام في المقدمة وعالج ماهية الحكم واصنافه من ملك مطلق الى مقيد بقوانين وضعية الى جمهوري ونظام خلافي وهي الامامة اي الملك المقيد بالشرع وهو في حديثه عن هذه الاصناف كلها يعتمد على ايرادات مختلفة من كتب التراث والقرآن والحديث وأقوال الصحابة ودراسات لكتاب متقدمين ومتأخرين من المسلمين وحين وصل الى بحث أسباب قوة الملك وأسباب انحلاله وجدناه يعود تونسيا خلدونيا مستشهدا بما ورد في المقدمة سعيا لتصحيح رأيه وتقوية حجته وتقويم اجتهاده ، مؤكدا على هذا الفتح الخلدوني الجديد في البحث منبها على أهمية ما توصل اليه الباحث التونسي ولقد ظل ابن أبي الضياف متشبثا بنظريات ابن خلدون من أول اجزاء كتابه حتى آخرها وكأنه يوحي الينا بأن دراسته التاريخية هذه ان هي الا حلقات جديدة ترتكز على نظرية ابن وطنه في الاطوار التاريخية للامم والشعوب منقحا حينا في النظرية رادا حينا آخر مطبقا لها ومن الافضل ان نقف هنا قليلا :

(2) الاتحاف : 2 / 23 .

يقول ابن أبى الضياف معقبا على كيفية انقراض دولة بنى حفص : « وانظر ما آل اليه الحال بعد تلك القوة وعز السلطان وعلو الكعب من انتقاض الجهات وانتزاء الثوار على البلدان ، واستطالة ايدى العربان بالفساد والنهب حتى استاقوا ظهر السلطان من مرتعه بالجبل الاخضر فى ظل قصره بباردو ، بعد ان تقاسموا المملكة بالاقطاعات من بعض سلاطينهم ، والعرب اذا تغلبوا على الاوطان أسرع لها الخراب لمنافاة طباعهم للعمران حتى وقع الاجلاب على المملكة بغير أهل الملة واستعانوا بهم على الملك المطلق الموزع اكثره بين جفاة الاعراب وصعاليك البوادى وصار آخرهم كالمسجون فى حجرته لا يملك الا موضع قدميه مع مقاسمة شريكه الغالب المثابر على استجلاب القلوب بالعدل والرفق ، وصار معمور المملكة بلقعا يتأنس به الوحشى ويتوحش به الانسى » ثم يقول الكاتب معللا هذا الوضع المزرى (3) : « واذا جال الفكر فى هذا الانقلاب تجد له أسبابا معقولة تعضدها الاخبار المنقولة ، وذلك أن الوازع فى أول ملك القوم كان على قانون شرعى أصوله الكتاب والسنة دانوا به فى أنفسهم وحضوا عليه من وراءهم مع الاقتداء بالسلف الصالح فى خشونة مآكلهم وملبسهم والاقتصار على حد الكفاف فى ابنيتهم وشعار ملكهم يتباهون بالانحياز لى سيرة الخلفاء الراشدين » والناظر فى كلام صاحب الاتحاف يجد أكثر من موطن يلتقى فيه تأثرا بابن خلدون فى كون الاعراب تتنافى طباعهم والعمران البشرى ، وانهم اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب وهو فى فهمه للمقدمة كان أنفذ بصيرة ممن اتهموا ابن خلدون بالتعصب على العرب والبغض لهم ، فانظر كيف يقتفى أثر ابن خلدون بقوله مع مقاسمة شريكه الغالب المثابر على استجلاب القلوب بالعدل والرفق وجعل ذلك مرتبطا بالاقتصاد والتقشف وعدم الترف فان كل هذا دلالة على تبنى الكاتب لنظرات ابن خلدون التاريخية شكلا ومضمونا . والعبارة : « اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب » وانظر أيضا الى ما يقرره فى أسباب سقوط الدولة الحفصية (4) .

« وانسلخ أواخرهم عن هذا الخلق وارسلوا سوائم نفوسهم فى مراتع الشهوة الحيوانية وشر الناس لنفسه من جهل مقدارها ولم يتهم اختيارها وقفا ـ ان شرهت ـ آثارها وطار بجناح طمعها الى وخيم مرتعها من الجرأة على القتل

(3) المصدر نفسه 23/2 .
(4) المصدر نفسه 2 / 24 .

وأخذ الاموال بغير وجه شرعي ولا عقلي والتصرف بالقوة الحيوانية بلا وقوف عند حد الى غير ذلك مما تقدم فى العقد الاول من المقدمة والطبع الحيواني لا يقتضى الخلال الحميدة التى هى أصل الملك .

ويواصل المؤرخ كلامه فيقول :

« وقد عقد ولى الدين ابن خلدون فصلا فى مقدمة كتابه محصله : « ان من علامات الملك التنافس فى الخلال الحميدة وبالعكس » قال فى آخره : « اذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منها جملة ولا تزال فى انتقاص الى ان يخرج الملك من ايديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيا عليهم فى سلب ما كانالله قد أتاهم منالملك ... » (5) ثم قال صاحب الاتحاف معقبا : « واستقرأ ذلك وتتبعه فى الامم السابقة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه » (6) .

والذى تجدر الاشارة اليه فى الفترة المتقدمة :

أولا : ان ابن أبى الضياف فى تحليلاته التاريخية يذكرنا بصحة مقاييسه التى وضعها فى مقدمة كتابه : الى غير ذلك مما تقدم فى العقد الاول من المقدمة (7) والطبع الحيوانى تقتضى الخصال الحميدة التى هى أصل الملك .

ثانيا : تعضيد مرتآه بكلام ابن خلدون فى أسباب انحلال الملك ولكنه لا يردد آراء ابن خلدون ترديدا ببغائيا بل انه يأخذها هضما ويتمثلها فى حيز التطبيق من منطلق ثقافة عصره ووضوح رؤياه فلذلك نراه يقرر ان بقاء الحكم وضمان العمران البشرى لا بد له من أحد الوازعين ، الدينى أو السياسى ، ويظهر هذا فى حديثه أيضا عن بنى حفص : « ولم يكن للمتأخرين منهم ما يردع أغراضهم النفسانية من وازع شرعى أو سياسى ولذلك كثرت الثوار ، والخوارج والدين واحد ، ولا يخفى ما فى الحروب الاهلية من نقص العمران وخراب البلدان ولو كان لهم قانون سياسى يردع الجاهل منهم كقانون دول الحضارة المحترم عند ملوكها وعامتها ما التهبت نيران الثوار ، ولا وقع بغير

(5) المصدر نفسه 2 / 28 .
(6) المصدر نفسه 2 / 25 .
(7) الجزء الاول من الاتحاف فى حديثه عن أصناف الحكم .

أهل الملة الانتصار وهذا من ثمرات الملك المطلق فان من فعل ما شاء لقى ما ساء » .

وفى هذا الرأى اضافة جديدة لمبادىء ابن خلدون فى عمر الدول وأسباب انحلالها فان الدول قد لا تنحل اذا حل محل الوازع الدينى وازع آخر وضعى يتمثل فى ايجاد قوانين ودساتير على نحو الدساتير الاوربية وتتئذ فانها فى رأى ابن أبى الضياف سياج كاف للحيلولة دون انحلال عمر الدولة ويزيد لرأيه توضيحا حين يتعرض لحموده بن عبد العزيز صاحب الكتاب الباشى الذى أخذ نظرية ابن خلدون فى عمر الدول اتباعا وتقليدا قال صاحب الاتحاف يرد عليه هذا اعظم الاسباب يقصد انعدام الدساتير فى انحلال عرى هذه الدولة وزوالها لا ما ذكره الوزير الكاتب أبو محمد حمودة بن عبد العزيز فى مثل هذه المحل من كتابه حيث قصر السبب على ما يقع عند تناهى الحضارة من الخراب وعلى الاعمار الطبيعية للدول (8) لان القوم أى الحفصيين ـ فى ذلك الوقت لم تبلغ حضارتهم مبلغا تقتضى هذا التأخير والخراب وهم الى السذاجة أقرب ومبانيهم شاهد لذلك كالجوامع الحفصية بتونس فانها بعيدة عن ترف الحضارة وزخرف التحسين على ان ما ذكره ولى الدين غير مطرد وناهيك بحضارة القسطنطينية مقر السلطنة ومجمع البحرين ومحشر الوفود وينبوع العمران ، وسوق التجارة الاعظم وشوكة الاسلام ومدينة مصر وغيرهما من أمصار المسلمين عمرها لله (9) .

فالكاتب هنا كما نرى ناقد لسلفه بن عبد العزيز فى اتباعياته ، منقح لنظرية سلفه ابن خلدون مدعما تنقيحه بالمشاهد فى بلاد الاسلام من جهة وبما يشاهده فى البلاد الاوربية من جهة أخرى ملاحظا ان الحضارة لم تزدهم الا قوة وما ذلك عنده « الا لجريان العدل فى بلدانهم على قانون معقول تنقاد اليه الخاصة والعامة ويقف عنده الامير والمأمور ليس لهما نبوة فيه ولا لسلطانهم فيه شهوة الا بعفو عن مذنب والعدل اذا دام عمر والجور ان دام دمر (10) .

---

(8) الكتاب الباشى ، مخطوط ، عدد 351 ، ورقة 201 .

(9) الاتحاف : 2 / 25 .

(10) المصدر نفسه 2 / 26 .

ثم يقول : « وأما أعمار الدول الطبيعية فانها بما تكون فى المتغلبين بقبائلهم وعشائرهم ، وفى غير الحواضر وناهيك بالدولة العثمانية فانها الآن فى المائة السادسة من العمر يتجدد دم الشباب نتيجة القانون الذى أساسه الشريعة الاسلامية وسياسة حال الوقت ودول الفرس ودول الامم المسيحية فانها تجاوزت العمر الطبيعي بكثير » (II) .

وهكذا فان ابن أبى الضياف قد عدل فى نظرية ابن خلدون القائلة بأن العصبية هى أساس الملك على ان ابن خلدون نفسه قد نقحها بعد ان انتقل إلى الشرق واتصل بتيمورلنك والمهم ان صاحب الاتحاف يشير من طرف خفي الى رأى ابن خلدون الاستقرائى فى حدود المجتمع القبائلي والعشائرى دون المجتمعات الحضارية مما جعله كما رأينا قبل حين يكمل النظرية الخلدونية بما ذكر من قوة القوانين والدساتير الوضعية التى تطيل عمر الدول وقد يتأبد بوجودها يقول : « والحاصل ان انقراض الدولة الحفصية وخراب دارها سببه ظاهر هو الملك المطلق الذى انفرد به ملك الملوك الفاعل المختار (I2) على ان ابن أبى الضياف يلتقى بابن خلدون فى ان العصبية القبلية قد تحل محلها عصبية أخرى كعصبية المماليك وذلك حين يتحدث عن محمد الحفصى عم محمد باى وكيف حسد ابن أخيه « وركن أى الداى مامى ــ لمقاتلتهما لما فى نفسه من استبداد هذا البيت لان الترك يريدون الامر دولة بينهم ، وطريق الوصول اليه الاقدام والعصبية على عادتهم بالجزائر التى انقرضت بانقراضها وانقراضهم (I3) ، ولست أدرى هل نستطيع ان نقول : إن هذه العصبية هى أشبه بمفهوم الحزبية فى عصرنا الحاضر ؟

والحاصل ان أبى الضياف كان التلميذ النجيب فى المدرسة الخلدونية وان آراء ابن خلدون فى العمران البشرى وما وصف فيه من نظريات لم يتوقف البحث فيها من جهة الكتاب التونسيين حتى نزعم بأن ابن خلدون بعلمه الجديد ظل مجهولا حتى جاء العصر الحديث ليبصرنا به الشرق أو الغرب بل انه علم قائم نشأ ابتكارا على يدى ولى الدين التونسى ثم تناوله من بعد الكتاب التونسيون يضيفون ويعدلون وبالرغم من ان عصورنا الفكرية لم تجل بعد بصورة كافية ، فان ما عرفناه حتى الآن يمثل مدرسة تونسية جديرة بكل

(II) المصدر نفسه 2 / 26 .
(I2) المصدر نفسه 2 / 26 .
(I3) المصدر نفسه 2 / 47 .

بحث ودراسة فهذا حمودة بن عبد العزيز بكتابه الباشي ثم ابن أبى الضياف باتحافه وينضاف اليه خير الدين بمقدمة كتابه «أقوم المسالك» الذى احدث فى الفكر الحديث ما احدثته مقدمة ابن خلدون وكانه وليدا شرعيا لهـا ، ولو قدر لبيرم الخامس طول العمر لتمت السلسلة المفرغة ، وفى خاتمة الباب الخـامس من صفوة الاعتبار ما يدل على هذا الترابط الخلدونى التونسى على ان ما يكتبه الاستاذ محمد مزالى يعد إيصالا لحلقات البحث الفكرى الخلدونى فى تونس وفى سائر بلاد المغرب .

وانه لمن الطريف عند ابن أبى الضياف هذا التشبث منذ مراحـل الكتـاب الاولى بالمفاهيم الدستورية لما رأى من انحلال الدول الى انعدامها مؤكدا على ان القوانين الضابطة للملوك هى سر بقاء الحضارات وبالتالى بقاء الدول وكانى بابن أبى الضياف فى هذا المجال يفوز فى تحفظ بفضل الـدين على الـدولة ويمكن الاكتفاء فى قيام الدول واستقامتها بما يحدثه أهل الحـل والعقـد من النظم والدساتير ، فلذلك رأيناه كثيرا ما رجع بنـا فى أحـاديثه عن ملـوك تونس الى نظريته تلك من ان السر كل السر يكمن فى كونهم ملوك اطلاق ، ولعل ما ذكره من تعطش المشير الاول الى مطالعة مقـدمة ابن خلـدون وبعض الكتب عن نابليون مترجمة انما سببه صاحب الاتحاف اذ لا نستبعد ان يكون وراء توجيه المشير فى مطالعاته تلك طمعا فى تطويعه نحو العدل والانصـاف بعد ان نفر من التنظيمات المطالبة الدولة العلية بها ولم يكن لرجال الدين ولا للوازع الدينى تأثيره المطلوب .

والمهم بعد هذا كله هو ان الكاتب شغل نفسه كثيرا بمفهوم الدولة ونظرية الحكـم .

(يتبـع)

د. الهادى حموده الغزى

نواصل فى الاعـداد القادمــة

نشر دراسة الدكتور الهادى حموده الغزى

« دور ابن أبى الضياف فـى ابراز الشخصيــة التونسيــة »

الساحرة

شعر : د. جعفر ماجد

لأنكَ لمْ تعرف الحب قبْلِي
لأن النساء على كل لونٍ وشكْلِ
لأن البَساتينَ لا تنبتُ الوَرْدَ فِي كل فصْلِ
وأنّ الطبيعةَ لا تمنحُ الخصْبَ في كل حقلِ
لأ نّي أحبّ بعنْفٍ
وأطلب في العنفِ مثلاً بمثْلِ
فإنّي سأقتُلك اليوم حبّاً
وحبُّكَ يعْنِي كذلك .. قتلِي !

★ ★ ★

سئِمْتُ الكلامَ الذي حفِظُوهُ
عنِ العشْقِ والعاشِقينْ
فقُلْ لِي كلاماً بلا ذاكرَهْ !
فكُلّ المواعيدِ ألغيْتُها منْ سنينْ
ومَا زلْتُ بيْن دروبِ الهوَى حائرَةْ
تعبْتُ منَ البحْرِ يغْتَالُنِي
تعبْتُ منَ الرّيحِ والشمْسِ .. والموْجةِ الثائرَهْ
سوَاحِلُكَ الزّرْقُ أشْتَاقُهَا

لأرْتَاحَ فِيهَا مِنَ الهَاجِرَهْ
وَحَسْبِيَ أنَّكَ لِي شَاعِرٌ
وَحَسْبُكَ أني أنَا السَّاحِرَهْ
فَخُذْنِي إليْكْ ..
وَوَزّعْ شُعُورِي عَلَى كَتِفَيْكْ
فَإني وَجَدْتُ اتِجَاهِي وَألقَيْتُ رَحْلِي
لأني أحبّ بعُنْفٍ ..
وأطلُبُ في العنف مثْلا بِمِثْلِ
سأقتُلُكَ اليومَ حبّاً ..
وحبُّكَ يعني كذلك .. قتْلي

جعفر ماجد

ننشر في الأعداد القادمة

دراسة : **محمد بن الأصفر** .... بروكلمان والفكر الصليبي
دراسة : **الشاذلي الساكر** .... الفلسفة الجديدة في فرنسا
دراسة : **رابح لطفي جمعه** .... بين ابن حزم الأندلسي والامبراطور البيزنطي
دراسة : **المنصف وناس** .... قراءة بنرامية لادب غسان كنفاني
دراسة : **المنصف الزغل** .... التفاعل بين الغزل والحياة في الحجاز
دراسة : **عبد الحميد سلامة** .... الشطرنج عند العرب

مكانة ابن أبي الضياف بين دعاة الاصلاح التونسيين

بقلم : أحمد الطويلي

الناظر فيما كتب عن احمد بن ابى الضياف فى عهد البايات منذ حياته الى سنة الغاء الملوكية فى 25 جويلية 1957 واعلان الجمهورية محلها لا يجد ذكرا لابن ابى الضياف بصفته مصلحا ، ولا بالطبع تحليلا لمكانته بين دعاة الاصلاح التونسيين ، ذلك لان ابن ابى الضياف كان اشد المصلحين التونسيين ضراوة على حكم البايات واكثرهم انتقادا لهم واحدهم تبيانا لعيوبهم وكشفا لشرودهم وتدقيقا لمضارهم على الشعب التونسى بادية وحاضرة .

لقد خصص المرحوم الفاضل بن عاشور ترجمات عديدة لسائر المصلحين التونسيين من جيل احمد بن ابى الضياف والاجيال اللاحقة به ، من المتأثرين بتحاليله الداعين مثل دعوته ، ونشرها فى المجلات التونسية **«الثريا»** **«والمجلة الزيتونية»** (1) ، لكنه لم يفرد ترجمة لاحمد بن ابى الضياف مع ان هذا الرجل من باعثى فكرة الاصلاح بتونس وركيزة متينة من ركائزها .

وكذلك فان المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب لم يثر اهتمامه فى ترجمتيه لأحمد بن أبى الضياف فى كتابيه **«خلاصة تاريخ تونس»** و**«مجمل تاريخ الادب التونسى»** الا الناحية الادبية فى هذه الشخصية اللامعة اذ عده ابرع كاتب فى عصره من نبغاء تونس «وأقدر من ابرزه الادب فى ذلك العصر من نبغاء هذا القطر» ، واقتصر على ايراد بعض قصائده الشعرية فى التشوق الى تونس ونبذ من «الاتحاف» ملاحظا ان «تاريخه الكبير أقوى دليل على اقتداره وبراعة يراعته» ؛ ولعل الترجمة الوحيدة الهامة والمفيدة المحتوية لمعلومات فريدة واشارة صريحه الى مضمون فكرة الاصلاح لدى احمد بن ابى الضياف هى ترجمة صاحب **«عنوان الاريب»** اذ يقول :

---

(1) انظر كتابيه « **تراجم الاعلام** » تونس 1970 ، و « **أركان النهضة الادبية بتونس** » تونس 1966 .

« وكان ممن صحبه (احمد باى الاول) فى سفرته الى فرنسا **وباطلاعه على** مبادى الانصاف والعدل الذى تشبثت به الامة الافرنجية المعبر عنه **بالحرية** قايسها بالقواعد التامة التى اسستها الشريعة الاسلامية لذلك فألفاها المتكفلة بسعادة الدارين ، وان تنكبها انما كان باستبداد ملوك الاسلام وضغطهم على الرعية ودأبهم على ذلك حتى استعبدوهم فضعف الامر ، وظهر الفساد فى البر والبحر حيث خلفت سيطرة الشريعة الاستبداد الذى لا يقود الا الى الخراب وليس طريقا للتفصى منه غير الضرب على أيدى الامراء فى معاملة الرعية الا بما تقتضيه الشريعة فى نفوسهم واعراضهم واموالهم وأنسابهم واديانهم ، فكان صاحب الترجمة يومىء للامير وان ساعده فى سلوك طريق الاستبداد التى كان عليها وهى فيه متأثلة بأن التقيد بقيود الشريعة هو الدواء الناجع فى اصلاح العباد والبلاد ، وبقى ذلك فى خياله الى أن وجد من يعضده عليه فصرح بامياله (اى ميوله) حسبما افاض فى ذلك فى الباب السادس من تاريخه ، وكان القائم باعباء تأليف القانون الناشىء عن عهد الامان **يناضل عن فصوله ، ويقنع الخاصة على تسليم اصوله** حتى سلقته الالسن ، ووسمته على براءته بما لا يحسن ، ولقد كان فى تأليفه ، ومدة معاناة تفويفه ، يبيت ساهرا ، ويصبحه باكرا ، فباسط اللسن اللبيب حميدة مازيغ ـ وكان يبيت معه ـ بكثرة نومه وطول استغراقه فيه مع ان صاحب الترجمة لم ينم الا يسيرا فأجابه بديهة : « **حق لمن يضع دينا جديدا ان لاينام بالليل** » **فاحتملها ضاحكا** ».

لقد كان الشيخ محمد النيفر جريئا فى هذه الترجمة ، اذ لاحظ انتقاد ابن ابى الضياف للحالة السياسية بالبلاد ، وتهجمه على الامراء والبايات ، بل تجاوز الحديث عن مضمون الاصلاح عند ابن ابى الضياف الى انتقاد هذا الاخير لمسايرته للباى ومساعدته « سلوك طريق الاستبداد » .

واول مقال صدر عنه اثر الاستقلال هو مقال المرحوم الطاهر الخميرى « **تعريف بابن ابى الضياف وتاريخه** » فى مجلة «**الفكر**» ، فى العدد الخاص بالثورة الكبرى (2) ولم يشر صاحب المقال الى فكرة الاصلاح عند صاحب « الاتحاف » لكن ادراج ترجمة لهذا المؤلف فى مثل هذا الباب اشارة الى دوره الريادى الثورى فى حياة الفكر بتونس منذ اواسط القرن الماضى ثم توالت عقب ذلك ، واثر نشر الطبعة الاولى الكاملة من « الاتحاف » ، الدراسات عن

(2) انظر مجلة الفكر (س 5 ع 9 ، جوان 1960 ، ص 30 ـ 36) **فى باب** « من رواد الثورة الفكرية التونسية » .

احمد بن ابى الضياف وابرازه داعيا للاجتهاد او مدافعا عن حقوق المرأة فى الاسلام .

ويتساءل المرء عن مكانة احمد بن ابى الضياف بين دعاة الاصلاح التونسيين وعن دوره بينهم ، وبماذا تميز عنهم وامتاز ، وعن علاقاته بالمصلحين التونسين وما هى نظرتهم اليه ونظرته اليهم ؟

لقد تميز عنهم جميعا بقلمه الناصع ، وجرأته فى الانتقاد ، اذ رزقه الله بيانا مؤثرا ، وبراعة بليغة استعملها لتصوير الحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالبلاد تصويرا لاذعا ، يتموج بمختلف مشاعر المؤلف نحو مشاهد الظلم والتخريب ، وينطق بشتى المواقف المتلونة بضروب الالوان : من الاستهزاء الى الاستخفاف ومن الاستياء الى الثورة ، ومن الغضب الى الاستنكار الذريع .

لقد اتخذ احمد بن ابى الضياف من « **الاتحاف** » اطارا تاريخيا ضمنه افكاره ومشاعره واحكامه على قضايا عصره ، ولا يبدو خلاله مؤرخا حياديا ، يسجل الاحداث فقط وانما قد كسا وصفه للاحداث بصبغة اصلاحية صريحة ، واخضع كل ما رسمه لنا من صور عصره بنزعة تفصح عن الدفاع عن مبادىء اصلاحية واضحة تتركب فى مذهب اصلاحى منظم له قواعده واحكامه وغاياته الخاصة به ، ويظهر احمد بن ابى الضياف فى جميع آثاره « **الاتحاف** » ، و « **رسالة فى المرأة** » و « **تتمه للاتحاف** » مفكرا قبل كل شىء . فهو مؤرخ يسجل الاحداث ، وهو فقيه يفتى ويدلى بالحجج والبراهين الدينية ، وهو شاعر مجيد ، لكنه فوق ذلك ومع ذلك مفكر عميق التفكير تنبع مواقفه الشخصية من تأملاته وملاحظاته عن المجتمع التونسى ، ومن تحليل دقيق للواقع التونسى بمختلف مظاهره وشتى صوره ، وكثيرا ما نرى احمد بن ابى الضياف يلتجىء الى ابن خلدون يغرف منه ، يختفى وراءه ليقوى من حججه . وقد امتاز بصفات عديدة : بالوعى بالحالة السياسية بالبلاد ، والاحساس بالخطر الشديد المحدق بالايالة فى عصره من الداخل والخارج والعطف نحو الفئات الشعبية بالبادية والحاضرة،والحنو على صقع تونس «**الضعيف حسا ومعنى**» (3)

فالامة التونسية حالها سيىء ، والظلم عام بها ، ومظاهر الفساد طاغية ، واليأس قد تغلغل فى النفوس والخوف تسرب الى القلوب ، وجسد تونس

(3) **الاتحاف** ج 5 ، ص 73 ، 80 ، 126 ...

اشتكى التداعي من القهر والظلم والعدوان الناتج عن الحكم المطلق . لذلك قاوم احمد بن ابي الضياف هذا النوع من الحكم مقاومة عنيفة ، ضارية ، شرسة ، فندد واتهم وهاجم وصرخ متسائلا :

« وكيف يستقيم حال لامة يعلمون ان نفوسهم واموالهم بيد واحد ، يتصرف فيها كما يريد ، لا كما يراد منه ، لا يسأل عن ذلك الا في الآخرة » (4) وحلل نتائج هذا الضرب من الحكم الوخيمة على النفوس على مستوى الخصال الانسانية والاخلاق النبيلة اذ يصير الشعب « عبيد جباية » يعيش في مذلة وصغار ، ويلاحظ في ص 26 من نفس المرجع اسفا على هذه الحالة .

«ومن المعلوم ان شدة الملك القهري تفضي الى نقص في بعض الكمالات الانسانية من الشجاعة واباء الضيم والمدافعة عن المروءة وحب الوطن والغيرة عليه حتى صار بعض اهل الجهات من المسلمين « عبيد جباية » ليس لهم من مسقط رؤوسهم وبلادهم ومنبت آبائهم وأجدادهم الا اعطاء الدرهم والدينار ، على مذلة وصغار ، والربط على الخسف ربط الحمار ، حتى زهدوا في حب الوطن والدار ، وانسلخوا من اخلاق الاحرار ، وهذا اعظم الاسباب في ضعف الممالك الاسلامية وخرابها » (5) .

وقد ثار ابن ابي الضياف على الواقع السياسي وتصرف البايات تصرفا متسما بالجور والارتجال في اتخاذ المواقف فيسخر بالسلطان قائلا هذا البيت مستشهدا به .

أوتيت ملكا لترعانا فتأكلنا

أكل الذئاب ، أذئب أنت أم راعي ؟ (6)

وبعد صفحات اخرى يذكر هذا البيت الآخر

وراعي الشاة ينفي الذئب عنها

فكيف اذا الذئاب لها رعاة !؟ (7)

(4) ص 20 ، ج 1 ، النشرة الثانية .
(5) نفس المرجع السابق ، ص : 26 .
(6) ص 20 ، ج 1 ، النشرة 2 .
(7) ص 26 من نفس المرجع .

وقاوم احمد بن ابى الضياف على جبهة اخرى ، صنف الرجعيين من العلماء لتخليهم عن واجب النصح لاولى الامر ، وعدم تغييرهم للمنكر ، وتزلفهم الحقير للسلطان ، وتخلفهم عما انيط بهم من الواجبات .

فابن ابى الضياف يريد ان ينتصب علماء الدين للقيام بدور فى الاصلاح ورفع الصوت للوعظ والانتقاد والنهوض للانكار على البايات ظلمهم لان «الجهات التى لا يقع فيها ادنى تغيير لا تخلو عن جور وفساد ، ونقصان وضرر » (8) وقد سجل صاحب « الاتحاف » مواقف هؤلاء العلماء فى بعض الظروف التاريخية الحاسمة مثل موقفهم ازاء قانون عهد الامان :

« ثم طلب الفقهاء المذكورون الاستعفاء من الحضور بهذا المجلس (شرح قانون عهد الامان)، واذا توقف بقية المجلس في أمر يتعلق بهم من الفقه يسألهم ويجيبون بالكتابة ، وكان الظن بهم تقديم هذه الطاعة المتعدية على غيرها من الطاعات القاصرة ، وتعللوا بان منصبهم الشرعي لا يناسبه مباشرة الامور السياسية ، الى غير ذلك من المعاذير التى لو لم نرها بقلمهم ما نقلتها . وقبل هذا الباى (محمد باى) عذرهم واراحهم من تعب الحضور ، ولسان حال المسلمين بهذه الايالة المسكينة يقول : مما يجب اعتقاده ان الله الذى دينه النصيحة لائمة المسلمين وعامتهم ، ومن اوامره الواجبة على عباده تغيير المنكر ولو بالقلب ، ومن شريعته السمحاء ارتكاب اخف الضررين عند العجز عن السلامة منهما ، الى غير ذلك من تيسير هذه الشريعة الصالحة بكل زمان ، يسألهم عن ذلك يوم تبلى السرائر ، ثم ان ربك من بعدها لغفور رحيم (9) .

وبالاضافة الى ذلك فان ابن ابى الضياف يحفظ لنا اخبارا عن افراد العصبة الاصلاحية التونسية فى عصره وكان عضوا نشيطا فيها ، ويورد بعض الاقوال لبعض افرادها ، ويصف صدى الاصلاحات السياسية التى كان هو محررا لها وخير الدين مدعما ومؤازرا :

« ولما اتممنا شرح القاعدة الاولى (من قواعد عهد الامان) ، وهى قاعدة كل القواعد ، وقرأناها على الباى فى ذلك المجلس ، بدرت من بعضهم بادرة يغفر الله له فيها وهى ان قال : « اى شيء بقى لسيدنا ؟ » ووافقه على ذلك بعض المتزلفين ، والباى ساكت ، لانه قبض يديه بجنبيه لاجل نفع الرعية حين هولت

(8) ص 17 ، ج 1 ، النشرة 2 .
(9) ص 248 ، ج 4 ، ط 1 .

عليه الامر ، كما تقدم ، فوجمنا لهذه البادرة الباردة ، فتكلم الوزير خير الدين ، وكان اثبت القوم جنانا وان شئت قلت واقواهم ايمانا . وقال له : « نعم يبقى لسيدنا ما بقى للسلطان عبد المجيد ، وما بقى لسلطان فرنسا وسلطانة بريطانيا وغيرهم من السلاطين بالقانون » ثم قلت لهذا القائل « هلا قلت هذا عند سماعك لهذه القاعدة وهلا اعملت الفكر فى فهمها قبل ان تسلمها والمراكب بحلق الوادى ؟.. الخ .. » (10) .

فابن ابى الضياف هو صوت من اصوات المصلحين التونسيين لكنه كان يعمل فى تحرج وحذر وخوف كبيرين (11) .

وهو مسجل لبعض مظاهر الحركة الاصلاحية ، ومقنن لبعض قواعدها ، وعضو نشط ويقظ فى الميدان الاصلاحى ، ومكانته بين دعاة الاصلاح التونسيين تكمن حينئذ فى شخصيته البارزة ، ومبادرته للدعوة الاصلاحية السياسية وكتابته للمقدمة النظرية التى قدم بها الكتاب وطبعت على حدة فى اوائل القرن الحالى فكان لها تأثير كبير فى نفوس الجيل الثانى للاصلاح جيل محمد السنوسى ورفاقه ، ومن المرجح أن المسؤولين عن الاسرة المالكة بتونس قد شعروا عند نشر الجزء الاول من « الاتحاف » بخطر دعوة احمد ابن ابى الضياف فامروا بالاحجام عن طبع سائر الكتاب . فى حين انهم لم يمانعوا فى نشر كتاب خير الدين واستيراد تأليف بيرم الخامس من القاهرة !!...

الا ان مكانة ابن أبى الضياف تتجلى بدقة فى علاقاته بالمصلحين التونسين الاولين : لقد كان له الدور الريادى فى الحركة الاصلاحية الاولى فى تونس وفى العالم الاسلامى قاطبة (إذ ان دعوة الافغانى تلت هذه الحركة فى التاريخ) وذلك لاسبقيته فى السن والعمل الادارى والاطلاع على خفايا الحكم وتوليه المناصب السياسية فى وقت مبكر وصلاته بجميع الاوساط بتونس .

ونجد علاقاته بافراد عصبة الاصلاح التونسية وطيدة ان لم تكن حميمة ، تصدر الدعوة عن آرائه ، يرجع اليها ، ونجد مقدمة «الاتحاف» أصلا من اصول

---

(10) ص 249 ، ج 4 ، ط 1 .

(11) انظر فصل المرحوم العامرى عن كتاب اتحاف أهل الزمان ، « الفكر » ، س 11 ، ع 10 جويلية 1966 ، ص ص 31 – 39 .

التفكير الاصلاحي التونسي ، قد طبعه ابن ابى الضياف باسلوبه وميسمه بينما مقدمة خير الدين حررها معه غيره (12) .
كما ان كتاب « **صفوة الاعتبار** » خاصة الجزء الخاص بتونس من تحرير غيره كما سنبين ذلك فى ابانه .

ومما لا شك فيه ان مقدمة «الاتحاف» قد كتبها صاحبها فى وقت سابق لتحرير سائر الكتاب لنصاعة اسلوبها وتردد اخبار فيها ذكرت فى الابواب اللاحقة .

ولنبين فى آخر هذه الدراسة بايجاز علاقة احمد بن ابى الضياف بخير الدين وقابادو وبيرم الخامس ومحمد السنوسى .

ان الرسائل المتبادلة بين صاحب الاتحاف وخير الدين تبين الصلة الحميمة بين الرجلين ، وما انفك ابن ابى الضياف يعبر له عن ولائه ومحبته واخلاصه وعرفانه وكان ابن ابى الضياف عينا لخير الدين خلال غيابه عن تونس يصف له ما يجرى فى البلاط والبلاد بكل دقة وينقل له اخبار بعض المصلحين التونسيين من الموالين للرجلين : كالجنرال حسين ورستم والباجى المسعودى ويحرص ابن أبى الضياف فيطلب من مراسله ان يكتم خبر هذه الرسائل قائلا له :

« واذا وصل مكتوبى اليك ، المحتوى على الغث والسمين ، فانت اولى الناس بدفنه فى قبر صدرك والنشر يوم الميعاد » (13) .

ويورد هذا القول لمصطفى بن اسماعيل مخاطبا صاحب الاتحاف : « انت بتونس وخير الدين بفرنسا ، قرأتما على معلم واحد فقلت له : شيطاننا واحد » (14) .

اما محمود قابادو فلا ننسى ان احمد بن أبى الضياف هو الذى جلبه من اسطنبول (15) ، لذلك يعترف له بالجميل والتقدم والرئاسة على العصبة الاصلاحية يقول :

---

(12) انظر أركان النهضة الادبية بتونس ، ص 17 .
(13) ص 35 من كتاب « وثائق تونسية أو تتمة للاتحاف » .
(14) ص 45 من نفس المرجع .
(15) انظر ملاحظة عدد 1 ، ص 61 ، ج 4 ، الاتحاف طبعة : 1 .

ابو الضيافي دياجي الخطوب ، أبو الضياف احمد محمود وخير وفي
يجلو افتخار فريق صار يقدمهم منه امير لواء البيض والصحف
...ان أنس لا أنسى مابالامس منك بدا من فرط بركبى المفضى الى الشرف(16)

اما بيرم الخامس فنراه يستشهد فى كتابه بابن ابى الضياف ويعتمده من مصادره ويشرح بعض أقواله (17) .

اما محمد السنوسى فينوه به فى « **مجمع الدواوين التونسية** » ويبين مكانته مكانته في النفوس وتأثيره فى مجالسيه ، يقول :

« فلن تجد فى مجلسه غير آذان مستمعة اليه ، وقلوب حاضرة بين يديه ، وهو يتحف مجالسيه بسائر الفنون ، ويعاطى البابهم ما يشتهونه » (18)

ونأسف لضياع ما جمعه السنوسى من شعر ابن أبى الضياف .

ونقول أخيرا ان مكانة احمد بن ابى الضياف كانت مهمة فى عصره اذ كان على صلة وثيقة برجال الاصلاح بتونس وحاول ان يكون محركا للعصبة الاصلاحية التونسية ومدونا للحركة ، ومحررا للمبادىء ومنظرا للمذهب الاصلاحى التونسى .

وكان لسان هذه الحركة فى الداخل والخارج ، فى تونس وباريس واسطنبول ، فى جميع الاوساط ، فى البلاط ومع العلماء والسفراء وجميع رجال السياسة .

أحمد الطويل

(16) انظر القصيدة ص 107 ــ 108 من ديوان قابادو ، ج 2 ، ط 2 ، تونس
(17) ج 2 ، ص 22 « صفوة الاعتبار » مصر 1302 .
(18) ص 115 من الحوليات ، العدد 5 .

كلمة السر .. في صدر اللاهث !

شعر: الصادق شرف (أبو وجدان)

ـ 1 ـ

* هي أنتِ ؟
أكادُ أصدّقُ عينِي ..
لولا خوفِي مِمّن تخدعُهُ عيناهْ .
هي أنتْ . ؟
أخافُ تكونينَ لِمَنْ أعشقُ أنتِ المرْآهْ .
هيَ أنتْ . ؟ ولكنْ ..
أينَ فضاءُ العينينِ الرّحبُ ؟ وأينَ مداهْ ؟
فأنا لا أبصرُ في عينيْكِ سوى ..
نافذتيْ حزْنٍ ، أجهلُ مأتاهْ !
ما هذا الحزْنُ الضّاربُ في فرحِ العينينْ .؟
فرحٌ يتوحّدُ بالحزْنِ ، ترى ..؟
أمْ أنكِ واحدةٌ تحملُ وجهينْ .؟
أمْ أنتِ امرأةٌ تحبلُ بالوجْهِ المُتمنّعِ في الدّائمْ؟
ما أكثرَ ما تحبلُ ـ بعدَ المنعِ ـ الأنثى بتوائمْ .!
لا ، لستِ الأخرى ، بلْ أنتِ امرأةٌ أخرى تشبهُها
ما أكثرَ في دُنيا المرأةِ مِنْ أشباهْ . !

* * *

ـ 2 ـ

* الاخـرى
كانَ الفرحُ الدّائمُ يتدفّقُ في شفتيْها شلالَ مياهْ ..
لكنْ أنتِ أراكِ .. علامَ أراكِ بدونِ شفاهْ !؟

الأخْــرَى ..
فِي شَفَتَيْهَا كَانَ يُزَقْزِقُ سِرْبُ عَصَافِيرْ ..
فَإذا وَلَّيْتُ تَحُطّ عَلَى كَتِفِـــي ..
وَإذَا أقْبَلْتُ عَلَيْهَا ، كَالطَّيْفِ تَطِيرْ .

الأخْـرَى ..
كَالنَّجْدَةِ كَانَتْ تَـأتِيـنِــي ..
إذْ يَتَلَعْـثَمُ فِي شَفَتَيَّ التَّعْبِيرْ .
فَتَحُلّ المعْقُــودَ عَلَى شَفَتِي ..
بِلِسَانِ ألْطَفَ مِنْ بَاقَاتِ حَـرِيـرْ ..
لا أعْذَبَ مِـنْهُ ! وَلَكِنْ ، يَبْدُو مِنْ لطْفِه غَارَتْ شَفَتَاهُ ..
مَتَعَتَاهُ بِأنْ يَفْتَحَ فَـاهْ .
آهٍ مِنْهُ ! وَآهٍ مِنْ شَفَتَيْهِ ! وَآهٍ .. آهٍ .. آهْ .!

* * *

ـ 3 ـ

* قولي شيئًـا عَلِّي أتذكَّرُ في
نَبَرَاتِك صوتَك ، أوْ صَوْتَ صَدَاهْ ..
هَـذَا صَوْتُكِ .؟ يَـا لَلَّـهْ .!
عِنْـدَ حُـدُودِ الأذُنَيْـنِ رَأيْتُهُ تَنْـهَارُ قُــوَاهْ !
صَوْتُ الأخْـرَى ..
قَـدْ كَـانَ يَـدُقّ عَلَى بَـوَّابَـةِ قَـلْبِـي ..
وَيَـفِيـضُ قَرَنْفُـلَ فِي شُرُفَـاتِي ..
صَوْتُ الأخْـرَى ..

نَهْرٌ يَجْرِفُنِي مِنْ سَطْحِ المَوْجِ إلَى نَزَغِ الأَمْــوَاجِ ..
يَفْتَحُنِي فجاً فِي الآتِــي ..
وَيَسُدُّ عَلَيَّ المَاضِي مِنْ كُلِّ فِجَاجِي .
صَوْتُ الأخْــرَى ..
قَــدْ كَــانَ الهَاجِسَ فِي نَفْسِي ..
حَتَّى فِي أَحْرَجِ أَوْقَــاتِــي ..
حَتَّى فِي الزَّحْمَــةِ مِنْ مَأْسَاتِــي ..

* * *

– 4 –

* هِيَ أَنْتِ ؟ ولــكِنْ مَنْ أَنْتِ ؟
أَلَسْتِ الأُخْرَى الوَاقِفَةَ الآنَ تُطِلُّ عَلَيْنَا ..
مِنْ مُسْوَدَّةِ كُلِّ كِتَابَاتِــي ؟
الأُخْرَى ؟ كَادَتْ لاَ تُبْقِي لِي فِي مُسْوَدَّاتِي ..
سَطْرًا لَمْ تَشْطُبْ فِيهِ عَلَى كَلِمَاتِي ..
مَا لَمْ تَشْطُبْهُ ، امْتَدَّتْ ..
فِيــه فَسَدَّتْ :؛
كُلَّ الفَــجَوَاتِ :
مَا بَيْنَكِ – كَالسَّدِّ – وَبَيْنِــي :.
وَقَــفَــتْ .. حَجَبَتْ .:
فِيَّ وِقْفَتِهَــا الرُّؤيَــةَ عَــنْ عَيْنِي ..
مَا أَبْقَتْ لِي فِي مَا أَمْلِكُ مِنْ مَخْطُوطَاتِ ..
مَا يُمْكِنُ أَنْ أَقْرَأَ فِيهِ مَلاَمِحَكِ ، الشَّطْبُ يُحَاوِلُ تَشْطِيبِي ..
حَاوَلْتُ أَرَاكِ فَلَمْ أُفْلِحْ .. هَا أَنْتِ خُذِي بِتَلاَبِيبِي ..

رُجينِي فِي عُنْفِ الزَّلْزَالِ ، فإنِّي
كالتِّمْثَالِ ، النِّسْيَانُ يُخَرِّبُ ذَاكِرَتِي ..
أفَتَرْتَاحِينَ لِتَخْرِيبِي !؟
أرْجُوكِ أعِيدِي الرَّجَّ ، وَقُومِي بِبِنَاءِ المَخْرُوبِ بِفَأْسِ ألاعِيبِي .
وَأعِيدِي لِي الهَارِبَ مِنْكِ ، الهَارِبُ ، عَنْكِ يُحَاوِلُ تَهْرِيبِي .
فَخُذِينِي مِنْ غُرْبَةِ رُوحِي ..
لِلرَّدْهَةِ ، عَلِّي أشْفَى مِنْ مَرَضِ التَّغْرِيبِ ..
ألآنَ ابْتَدِئِي فِي القَوْلِ بِمَا كَانَتْ تَلْقَانِي ..
مِنْ قَبْلُ بِهِ الأخْرَى مِنْ كَلِمَاتِ التَرحِيبِ
إذَا أفْلَحْتِ فَأنْتِ حَبِيبَتِيَ الأولَى ..
حَقًّا ، لاَ بِالتَّقْرِيبِ .!
هَا إنِي نَادَيْتُكِ يَا حُبِّي .. فَأجِيبِي ..
كَي أعْرِفَ مَنْ أنْتِ ، أجِيبِي .

* * *

– 5 –

* يـافرحَةَ عُمْري !

أالآنَ أجَبْتِ ، بماذا ؟
بِكَلِمَةِ السِّرِّ ، وَهَلْ غَيْرُ «حَبِيبِي» ؟
هِيَ أنْتِ إذَنْ .!
بِالحُبِّ أجَبْتِ ، الحُبُّ هُوَ السِّرُّ الأعْظَمُ فِي كُلِّ زَمَنْ ..
هِيَ أنْتِ إذَنْ .!
يَا كُلَّ الكَلِمَاتِ السِّرِّيَّةِ فِي الدُّنْيَا ..
هَلْ فِي كَلِمَاتِ السِّرِّ العُظْمَى أعْظَمُ مِنْ قَوْلِ «حَبِيبِي» ؟

يَا أيتُهَا المَشْهُورَةُ بِالحُبِّ ، بِلُطْفِ الحُبِّ ..
أنَا المُتَهَوِّرُ . لاَ أحَدٌ أقْدَرُ مِنْكَ عَلَى تَأدِيبِي ..
يَا فِتْنَةَ عُمْرِي ..
مَا أتْفَهَ عُمْرًا مِنْ غَيْرَ فِتَنْ !

يَا مِحْنَةَ أيَّامِي ..
قَلْبِي مَمْحُونٌ ، وَيَمُوتُ بِدُون مِحَنْ .!
قَلْبِي يَسْتَوْطِنُ فِيكِ الفِتْنَةَ ، وَالمِحْنَةَ ،
مَا أتْعَسَ قَلْبًا مِنْ دُونِ وَطَنْ !
هِيَ أنْتِ إذَنْ .!
مَا أحْلَى صَوْتَكِ ! لا أحْلَى مِنْ صوْتِكِ إذْ يَهْتِفُ بِي :
« هَا عُدْتَ حَبِيبِي » !

(يتبع)

ننشر فى العدد القادم

الفصل الثانى من قصيدة « كلمة السر ، فى صدر اللاهث ! »
للشاعر أبى وجدان الصادق شرف .

صور من الحركة الوطنية التونسية

« فرحات حشاد وفلسفة النقابة »

بقلم : د. عبد الغفار محمد حسين

بعد أن فرضت فرنسا معاهدة الحماية على تونس سنة 1881 **أخذت ـ مخالفة** لنظم الحماية ـ تسخر القوى السياسية وهياكل الحكم فى تونس لخدمة رأس المال الفرنسى ، ومصالح الطبقة الحاكمة الفرنسية ، ولذلك حرصت على قتل السلطة الوطنية والقضاء على الشخصية القومية مستعينة **بسلوك سبيل الادارة** المباشرة وعززت ذلك باسناد السلطة الى قوات الاحتلال **العسكرية والجندرمة** تتصرف فيها وحدها دون تدخل من السلطات التونسية ، وزادت على ذلك فأعطت الفرصة للفرنسيين ليسيطروا على المصالح الاقتصادية ، **وهم الذين** كانت **تتنافى مصالحهم الاقتصادية مع مصالح التونسيين .**

وكنتيجة لهذا ساد البلاد فقر اقتصادى وحالة من **البؤس المادى والفكرى** والادبى فأصبحت أجور التونسيين تافهة فى الوقت الذى **ارتفعت فيه الاسعار** كثيرا وفى الوقت الذى غلب فيه العمال والفنيون الفرنسيون **على الاعمال** وتقاضوا الاجور المرتفعة وحينما كان العمال يثورون للمطالبة ببعض حقوقهم كان المستعمر الفرنسى يقاوم هذا بالقتل والتعذيب والسجن والنفى، بل انه لم يفكر لحظة فى ايجاد نظام الضمان الاجتماعى لهؤلاء البؤساء فتشردوا ، وعمت تونس حالة من الفوضى والبطالة ، وتعرضت الطفولة للكوارث والسقوط الاخلاقى، وتبع كل ذلك العمل على قتل معنويات الشعب التونسى وذلك بمقاومة حركة التعليم وبرامجه الوطنية وقتل اللغة العربية واحلال الفرنسية محلها ـ بل ان الفرنسيين كذلك حاولوا ان يجروا المرأة التونسية الى حالة من الثورة لم تكن لتناسبها فى ذلك الوقت ، وهم قد أرادوا أن يخلقوا انشقاقا وتصدعا

فى المجتمع التونسى مستعينين بصنائعهم فى تونس للقضاء على الشخصية التونسية . (1)

وعلى هذا الاساس كانت الحركة العمالية حركة ثورية انقلابية تسعى الى ان يسود تونس ومجتمعها مبادىء سامية وقيم عالية ، والى تسخير الهيكل السياسى لخدمة المجتمع بأسره لا لخدمة مصالح طبقة معينة . (2)

وكان من الطبيعى ان تصطدم الحركة العمالية فى تونس بأصحاب رأس المال المستغل والاستعمار الفرنسى الذى فرض حمايته على تونس بالقوة ، وفرض عليها استعمارا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

وأصبح لزاما على الطبقة العمالية فى تونس أن تقاوم بجانب رأس المال وتحكمه النظام السياسى المفروض على البلاد وذلك لكى تحقق تحررها الوطنى ولتنال حريتها الاقتصادية لتستطيع بعد ذلك أن تدير شؤونها بنفسها بعيدا عن كل تأثير مفروض من جانب القوى الرأسمالية الاجنبية ، وبعيدا عن التنظيم النقابى الفرنسى . (Comité Général de Travail. : C. G. T.) ذى الميول الشيوعية والذى كان يعمل لفائدة الشيوعيين فقط ، وبجانب الحركة العمالية الدولية الحرة التى تعمل لفائدة جميع العمال على أساس من العدل والحرية والمساواة وبغض النظر عن الجنس والدين . (3)

---

(1) أنظر 1 ـ أحمد خالد : الطاهر الحداد والبيئة التونسية فى الثلث الاول من القرن العشرين . تونس 1967 ص 227 ، ص 232 ، ص 244 ـ ص 247
2 ـ صحيفة لسان الشعب ـ العدد 118 فى 7 نوفمبر سنة 1923 .
3 ـ صحيفة الصواب العدد 30 يوليه سنة 1928 وأعداد 20 يناير ، 3 فبراير و30 مارس سنة 1928
4 ـ صحيفة الرابطة الشرقية العدد 15 يناير سنة 1930 ص 28 ـ ص 30
5 ـ صحيفة شمس الاسلام . العدد الاول ـ المجلد الاول محرم سنة 1356 هـ

(2) على البلهوان : تونس الثائرة ... القاهرة 1954 ص 81 ص 100 .

(3) عمر سعيدان : فرحات حشاد بطل الكفاح القومى الاجتماعى . تونس 1969 (مقال : الحركة النقابية بشمال افريقيا . بقلم فرحات حشاد) ص 159 ـ ص 169 .

فرحات حشاد :

وكان الزعيم النقابي العظيم فرحات حشاد رجلا آمن برسالته ومنهجه في العمل ، وآمن برسالة محمد علي الحامي الذي حمل لـواء الحركة العمـالية في العشرينيات من القرن الحالي ، ولذا فقد جاهد لاكمال عمله وعمل بلقاسـم القناوي من بعده ، وهو بقدر ما آمن بتنظيم العمل النقابي وتأسيس اتحـاد النقابات العمالية بقدر ما آمن بالدعوة الى منح العمال حقوقهم ، وبقدر ما آمن بالعمل السياسي الوطني ، وكان على العكس من بلقاسم القنـاوي وحسـن النوري ، فبلقاسم القناوي تبرأ من العمل السياسي ومن الانتساب الى جانب حزب الدستور ، وعلى العكس من حزب الدستور القديم الذي تبرأ من محمد علي القابسي ـ مخدوعا بحيلة المقيم العام لوسيان سان ـ وعمله النقابي ، فأتاح للفرنسيين الاطاحة به وبعمله النقابي . (4)

وكان الحزب الدستوري في الوقت نفسه بزعامة بورقيبة غير غافـل عـن أهمية الميدان الاقتصادي اذ انكب عليه بالدرس والتحليل والتمحيص فأدرك أنه لن يستطيع أن يغير من مجريات الامور الا اذا استرجع اولا اداة الحكم ومقاليد السلطة ليسخرها لخدمة الشعب التونسي ، وأدرك رجال الحركة العمالية وعلى رأسهم حشاد وجاهة هذا الرأي فتعاونوا مع الحزب وأخذوا مكانهم بجواره لصالح الحرية والعدالة والاستقلال تحت لوائه .

وكانت تلك الملحمة الرائعة التي عاشها الشعب التونسي في معارك المتوالية مع الاستعمار . (5)

اذن كان فرحات حشاد يؤمن بالعمل النقابي على أساس اجتماعي واقتصادي وسياسي مقتنعا واثقا أن حرية العمال وتحقيق العدالة بينهم وبين غيرهم انما هو جزء من حرية الوطن وتحقيق أمانية ، فاصبح عمله بذلك جزءا من العمل السياسي لحزب الدستور الجديد ، ووقف الاثنان متساندين ووقف بورقيبة

---

(4) عبد الغفار محمد حسين : الحركة الوطنية في تونس رسالة دكتوراه غير منشورة أغسطس سنة 1972 الفصل السادس .

(5) الذكرى الاربعين لبعث الحزب ... بقلم الصادق المقدم .. تونس الاقتصادية العدد 9 مارس سنة 1974 ص 5 .

يساند العمال ويساند فرحات حشاد ويشيد بعمله وبجهاده ويعتبر هذا الجهاد مكملا للصراع الوطني ضد العدو المستعمر ، وسندا قويا لحزب الدستور في جهاده ، وبهذا امتاز فرحات حشاد عن سابقيه ، فهو رجل نشأ في الحياة النقابية في الاتحاد الفرنسي C. G. T. بجانب بوزانكي ، ولم ينضم للاتحاد النقابي برئاسة القناوي سنة 1937 وظل لا يعرف في الاوساط الدستورية حتى سنة 1944 فرأى وشاهد وعرف أن الاتحاد النقابي الفرنسي انما هو فرع من الحزب الشيوعي الفرنسي ، فادرك خطورة الاستعمار على حرية بلده ، فقرر الانضمام الى العمال التونسيين وتكوين الاتحاد العام التونسي للشغل (6) .

● **أما فلسفة فرحات حشاد النقابية :**

فقد كان له في نضاله النقابي مذهب ونظرة انسانية ، ومذهب ونظرة اشتراكية ، كما كان له أيضا مذهب ونظرة سياسية ، ومن ثم كان نضاله العمالي مرتبطا بالحركة الوطنية التونسية ارتباطا حقيقيا وعميقا جعله في نظر المستعمرين خطرا على الوجود الفرنسي الاستعماري وعلى الامتيازات الفرنسية والتعصب الجنسي لهم ، ومن ثم قاوموه حتى قضوا عليه وان لم يقضوا على حركته العمالية .

1) من الوجهة الانسانية كان مذهبه يقوم على خمسة مبادىء كانت قاسما مشتركا لسلوكه ونظريته في جميع الميادين في الاخلاق وفي الاجتماع وفي السياسة .

أ – فقد كان يرى ويؤمن أن الانسان جوهره أساسا الخير ، ولذا فقد كان متفائلا حسن الظن بالناس .

ب – وكان يرى ان حرية الانسان وعقلانيته أساس السعادة البشرية وسببها ، ولذلك مجد الحرية والديمقراطية والعقل .

ج – وكان يؤمن بالانسان وقداسته فآمن بالتضامن والتعاون البشري ورأى أن التقدم الاقتصادي والاجتماعي رهين بالتحرر السياسي فطبع كفاحه النقابي بطابع سياسي قومي .

د – ورأى ان القوة في الاتحاد فتمسك بشدة بالوحدة القومية وحرص على وحدة الشعب التونسي .

---

(6) الحركة النقابية التونسية من محمد علي الى فرحات حشاد . بقلم بورقيبة . بين تونس وفرنسا . تونس 1957 ص 446 – ص 462 .

وكانت هذه المبادىء قوام أعماله وسلوكه .

2) أما من الناحية الاشتراكية ، فقد كان يرى أن العمل أساس الخير فدعا الى العمل والمثابر ومقاومة الخمول والكسل ، وآمن بالمبادىء الاشتراكية فعمل على تجسيدها فى سلوكه ونشرها حوله . وكان يرى أنها تهدف الى القضاء على التخلف ومظاهر البؤس ، واعتمد فى الوصول الى ذلك على التعاضد والتعاون وخصب العقل التونسى وحماس الشعب ووعيه . ولم تكن رسالته للشعب التونسى وحده بل تعدت حدود بلاده فعمل على اقرار العمل النقابى فى شمال افريقيا على أساس العدل والحرية .

وآمن فرحات حشاد بأن (الاستقلال السياسى بغير الرقى الاجتماعى وبغير سيادة العدالة الاجتماعية وتغيير القواعد الاقتصادية والاجتماعية للنظام القائم ليس الا اغراء خادعا خطيرا) . (7)

أما الطريقة التى رآها لتحقيق هذه النظرية الاشتراكية فقد تمثلت فى مناداته باعداد مخطط للتنمية ، وتصنيع البلاد ، وتوفير الانتاج وزيادته . على أن تكون هذه الاشتراكية تونسية لحما ودما ، فطلب من التونسى ان يعتمد على نفسه لتحقيق هذه الاهداف . ووجد فى تقاليده القديمة الاسلامية أساسا لها ، وهو مع ذلك لم يكن رافضا لرأس المال وانما حاول أن يوفق بينه وبين العمل ، ويرى ان لا غنى لاحدهما عن الآخر .

وهو فى هذه الناحية يتفق مع بورقيبة فكلاهما يؤمن بمبدأ الاعتماد على النفس وعلى القول بأن العقول التونسية كافية للاعتماد عليها . ويجب الاعتماد على المذاهب الاجنبية التى لا تنطبق على واقع البلاد ، وكلاهما يرى المحافظة على الوحدة القومية وعلى عدم الاستغناء عن أى طبقة بما فيها طبقة أصحاب رأس المال ، وكلاهما يعمل لتوجيه رأس المال وجهة اشتراكية . (8)

3) ومن الناحية السياسية ، آمن فرحات حشاد بتكامل النضال النقابى والسياسى ، حيث أن سعادة الطبقة العاملة تقترن بسعادة الوطن بأكمله ، ورأى أن الكفاح النقابى انما هو أداة لتحرير الشعب وتخليصه من الاستعمار والاستغلال وطالب بوحدة شعوب المغرب العربى ووحدة الحركة العماليةفيها لان هدف الكفاح فيها واحد ، كما دعا الى وحدة أوسع وأشمل للحركة العمالية

(7) عمر سعيدان : المرجع السابق ص 42 – ص 43

(8) عمر سعيدان : المرجع السابق ص 27 – ص 47 .

فى البلاد العربية ، ثم دعا الى وحدة عمال العالم قاطبة ، فقد كان انسانا فلسفى النزعة يحب أخاه الانسان أينما وجده،ويقول: إن التونسيين جزء من الانسانية لهم ما لها وعليهم ما عليها ، ويجب أن يدرك التونسيون أن المشاركة فى الحضارة الانسانية واجب بشرط أن تكون حضارة عادلة وحرة وسامية . (9)

ولايمان فرحات حشاد بارتباط العمل النقابى بالعمل السياسى،وبأن حركة العمال جزء من النضال الوطنى فى سبيل الحرية ، فانه حينما اعتقل الحبيب بورقيبة فى 18 يناير سنة 1952 تحمل بعده المسؤولية كاملة بشجاعة وتبصر ، وكان دائما يتصل به فى منفاه ويطلعه على سير القضية بل ويشجعه ويطمئنه وكان يرسل اليه دوما بأخبار النضال الوطنى وتطوره . (10)

وكان فرحات حشاد قد بدأ نشاطه النقابى سنة 1937 ولكن فى نطاق نقابة العمال الفرنسية C. G. T. وفى هذه الفترة تفتحت مداركه وخصب عقله وطالع لكبار الفلاسفة وفى مقدمتهم الفيلسوف الالمانى كانت Kant ثم بدأ يعمل فى الجنوب لمساعدة زملائه واستطاع بمعاونتهم واخلاصهم لفكرته أن يؤسس اتحاد النقابات المستقلة فى الجنوب سنة 1944 الذى ضم عمال صفاقس وما حولها ، ثم قدم بعدها الى تونس وكون بها سنة 1945 اتحاد النقابات المستقلة بالشمال ، وكان بها (الجامعة العامة للموظفين) فاستطاع أن يقابل المشرفين عليها وقابل مسؤولى النقابات المستقلة وأقنعهم بضرورة توحيد الصفوف ، ثم استقر رأى الجميع على عقد مؤتمر عام بين اتحاد نقابات الجنوب واتحاد نقابات الشمال ونقابة الموظفين بقاعة الخلدونية فى 20 يناير سنة 1946 وفى هذا المؤتمر التأسيسى تم الاندماج وتحققت الوحدة وبرز (الاتحاد العام التونسى للشغل) وانتخب فرحات حشاد كاتبا عاما له (11)

ولكى يحقق فرحات حشاد أهداف العمال ومطالبهم ، ولكى يحقق فلسفته ونظريته العمالية النقابية فانه وضع نصب عينيه دستورا ومنهجا نقابيا سعى لتحقيقه قامت على الاسس التالية :

1) ايجاد منظمة نقابية قومية مستقلة عن كل منظمة غير تونسية .

2) تحقيق انضواء نقابة العمال التونسيين فى الجامعة النقابية العالمية (12)

---

(9) المرجع السابق ص 47 — ص 51 .
(10) الحركة النقابية التونسية بين محمد على الى فرحات حشاد .
(11) عمر سعيدان : المرجع المذكور ص 27 — ص 34 .

3) ان يقوم الاتحاد العمالي التونسي :

أ ـ بايجاد نظام وأسلوب لتكامل رأس المال والعمال بحيث يحال دون تضخم رأس المال على حساب العمال وبحيث ينال العامل من الاجر ما يكفيه ويكفل له حياة كريمة تسمح له بالاستفادة من خيرات الرقى عن طريق ازدهار المشاريع والاعمال بأقصى فائدة للجميع .

ب ـ وبايجاد نظام نقابى سليم .

جـ ـ دراسة الحالة العامة للعمال من حيث ظروف حياتهم وعملهم وأجورهم والبحث عن المتعطلين منهم وعلاقتهم بأصحاب العمل .

د ـ تربية الطبقة الكادحة وحملها على ادراك مدى صلة الحقوق بالواجبات ، ومعنى بذل الجهد ، والاعتماد على قيادة الحركة النقابية وذلك فى نطاق المصلحة العليا العامة للبلاد .

هـ ـ تنمية روح التساند والتعاون فى صفوف العمال ، وانشاء الصناديق للتضامن والتفكير فى نظام اجتماعى لرفع مستوى العمال يكون مستمداً من النظام الاجتماعى الاسلامى . (13)

وأخذ فرحات حشاد ينظم الجهد والعمل ، وبدأ الصراع بينه وبين الاتحاد النقابى الفرنسى والمنظمات النقابية الاخرى ، فصمد للكفاح حتى نمت الحركة النقابية التونسية بشكل أتاح لها أن تلعب دوراً بارزاً فى القضية الوطنية وفى القضية العمالية . ووقفت تساند الحركة الوطنية بصلابة وتحشد كل الجهود لمواجهة كافة المشاكل التى تعوق تونس عن التقدم لاستعادة حريتها (14) فأدرك الاستعماريون خطره واغتالته عصابة (اليد الحمراء) الفرنسية فى تونس فى الخامس من ديسمبر سنة 1952 (15) ولكن بعد أن أرسى قواعد العمل النقابى السليم .

د. عبد الغفار محمد حسن

(جامعة طنطا)

---

(12) Centre de Documentation National Histoire de Mouvement National Tunisien, pour préparer la troisième epreuve - vol 2 1950 / 51. Tunis 1973. PP. 119 - 122

(13) محاضرة فرحات حشاد فى جمعية طلبة شمال أفريقيا المسلمين بباريس فى 20 / 2 / 46 : عمر سعيدان . المرجع المذكور ص 137 ـ ص 152 .

(14) تونس الثائرة ص 94 ـ ص 95 .

(15) الحركة النقابية من محمد على الى فرحات حشاد .

الدخول إلى الجنة

قصة : حسن نصر

يتحدثون عن تلك المرأة ، إنما كانت معروفة بكثرة الدموع فى عينيها ، غير أن العمر تقدم بها ، ولم تبق الدموع مثلما كانت من قبل تملأ عينيها .

فى احدى أيام الصيف والدنيا تشتعل من الحر ، خرجت تلك المرأة فى وقت لا يخرج فيه الناس عادة ، فاعترضها فى تجوالها كلب يلهث من العطش . كانت تحمل معها بقية من ماء ، يمكن ان تطفىء العطش عن ذلك الكلب .

عطفت على المسكين ، وهى من طبعها عطوفة ، وأرادت ان تسقيه غير أنها لم تجد إناء متسعا .

نظرت الى الكلب يلهث أمامها ، عيناه تفيضان بالطاعة العمياء ، قـرأت مـا فى عينيه من دموع ، ومن غيرها يفهم مثل هذه اللغة ، وهى التى ما زالت بقية من دموع تملأ عينيها ، بحثت عن اناء متروك تصب فيه الماء ، لما لم تجد قـررت ان تصب الماء فى انائها ، ان لها اناء متسعا يمكن للكلب أن يرتوى منه .

استمر الكلب يلعق فى اناء تلك المرأة حتى نفد ما كانت تحمله معها من ماء ...

صمت الراوى ليأخذ نفسا .

كان شيخا جليلا ، بيده مسبحة من عنبر يدير حباتها بين اصبعيه ، جبينه العريض الاسمر يفيض بالسكينة والـرضى ، على تجـاعيد وجهـه ابتسـامة مطمئنة ، برغم اسنانه المنخورة السوداء فذقنه الذى كساه الشيب يبعث فى نفس الجالس اليه المحبة والاحترام ، وهـو يتكىء على حشيـة من الصـوف مطروحة على زربية قيروانية ، الزمن عشية والشمس قد اصفـر لونهـا فى الافق والجماعة تجلس حول الشيخ تستمع الى الحكاية .

من بين الجماعة جلس اسماعيل يطل على الحلقة بعنقه الطويل كالزرافة .

كان اسماعيل كبير الرأس ، مفلطح الانف ، مستدير العينين ، اذا تكلم رفع صوته الغليظ المتقطع النبرات كأنه صوت طفل يتدرب على الكلام ، واذا ضحك فتح فمه العريض ولا يغلقه حتى يقول له الشيخ : « اغلق.فمك يا اسماعيل » .

قال اسماعيل من غير أن يتمهل الراوى أو يعطيه فرصة ليأخذ نفسا :

ـ وماذا فعل بها الكلب يا شيخ ؟!

تابع بعد ذلك الشيخ حكايته من غير ان يبدى اهتماما لما قاله اسماعيل :

ـ ... قلنا استمر الكلب يلغ فى اناء تلك المرأة ولم يتركها الا بعد أن استنفد كل ما فى إنائها من ماء ، حتى ماتت .

صمت الراوى ، بينما راح اسماعيل يضحك ، واستمر فمه مفتوحا حتى قال له الشيخ :

« اغلق فمك يا اسماعيل » .

ثم تنحنح الشيخ وتابع يقول :

ـ لكن تصوروا يا جماعة ، رغم ما عرفت به تلك المرأة من كثرة الدموع فى عينيها ، فانها دخلت الجنة .

ـ كيف دخلت الجنة .

صاح اسماعيل من جديد وهو يفتح فمه بالضحك ولم يغلقه حتى قال له الشيخ :

ـ « اغلق فمك يا اسماعيل » .

وتابع الشيخ :

ـ دخلت الجنة لأنها سقت ذلك الكلب العطشان من الماء الذى عندها حتى روى .

الى هذا الحد ، كانت الشمس قد غطست فى الغروب وحل وقت الصلاة ، فقامت الجماعة الى صلاة المغرب يتقدمها الشيخ ومن وراء الشيخ يقف اسماعيل بعنقه الطويل يشرف على الجماعة كالزرافة البلهاء .

حسن نصر

برقيتان من محمد الصادق باشا

الى الصدر الاعظم باستانبول

بقلم : عبد الجليل التميمي

اذا كانت حادثة توقيع معاهدة الحماية يوم 12 ماى 1881 ، قد تحددت معالمها بصورة اجمالية ، عن طريق ما قدمته لنا الوثائق الفرنسية ، فاننا مازلنا نحتاج ، وسنحتاج دوما ، الى تقنين تلك المعلومات بما يتوفر لدينا من وثائق جديدة صادرة عن الاشخاص الذين صنعوا تلك الاحداث وكتبوا عنها فى حينها .

واذا كانت مواقف الدولة التونسية قد تدارسها بعض المتخصصين وفقا لمراسلات الباى مع فرنسا ، غير انه وجب ان لا نغفل عن القول ، ان مراسلات باى تونس مع الباب العالى ، لم يقع نشرها ودراستها ، دراسة هادفة ، (*) خاصة اذا علمنا مدى اهميتها وتنوع مادتها التاريخية بالنسبة لتاريخ بلادنا .

ويطيب لى ان أنشر نص برقيتين كان قد وجههما محمد الصادق باى الى الصدر الاعظم باستانبول خلال اليومين التاليين من توقيع المعاهدة . وقد كنا عثرنا عليهما ، من ضمن عدد كبير من البرقيات الاخرى . بارشيف رئاسة الوزراء ووزارة الخارجية العثمانية باستانبول ، وتتناول هذه البرقيات كلها أحداث ما قبل توقيع المعاهدة وبعدها بقليل . وتصور هاتان البرقيتان الملابسات التى تم فيها عقد المعاهدة ، فضلا عن تقديم تسجيل جيد وأمين للحوار الذى دار بين الباى والقنصل الفرنسى والجنرال بريار ، قائد الحملة الفرنسية على تونس .

وقد كشفت هاتان البرقيتان عن معطيات تاريخية من شأنها أن تعمق أبعاد وخلفية التدخل الفرنسى ، واكتفى هنا باشارة هذه النقاط فى المحاور التالية :

(*) نستثنى رسالة الدكتور عبد الرحمن تشايجى ، **المسألة التونسية والسياسة العثمانية 1881 ـ 1931** والتى قمنا بنقلها الى العربية ، ونشرت بتونس 1974

ـ على الرغم من ان نص المعاهدة لم يشر او ينص صراحة على مضمون «الحماية» فان الباى فى برقيته الاولى يصرح بها **لاول مرة** بعد يومين فقط من امضائها ، وجاء حرفيا فى نص البرقية التى وجهت باللغة الفرنسية :

«(Le Général) a soumis à ma signature *un traité de protectorat*»

ـ ان البرقية الثانية التى تنشر لاول مرة ، تبين ان القنصل الفرنسى قد اثار مع الباى قبل عقد المعاهدة بفترة طويلة ، اخذ نفس الالتزامات السياسية وتحسيسه لعقد اتفاق مع فرنسا بنفس شروط معاهدة باردو تقريبا كما جاء فى مضمون البرقية . وهذا ما يؤكد ان فرنسا قد سعت ، بعد مؤتمر برلين ، لضم تونس اليها . وقد اضطرت لتخطيط مسرحية الاحتلال وفرضها بالقـوة بعد ذلك .

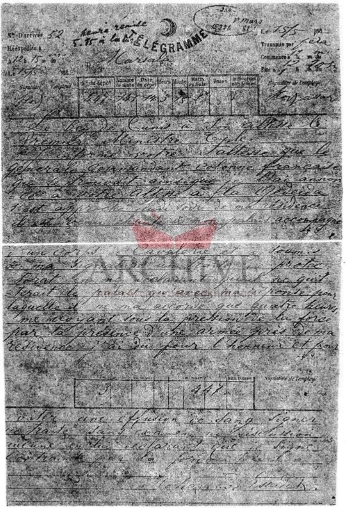
ـ ان محمد الصادق باشا قد صرح للجنرال بريار انه اضطر ، تحت التهديد باستعمال القوة . امضاء المعاهدة دون دراسة محتوى بنودها او قراءتها واخذ رأى مجلس الشرع فيها ، وهذا ما ينفى عنها أى صبغة قانـونية ، اذ ادعـاء التراضى بها غير وارد تاريخيا ، وهذا ما يؤكد على عدم شرعية فرض الحماية أصلا .

ـ ان موقف محمد الصادق باى تجاه سلوك ومنطق الجنرال بريار المتعجرف كان موقف الضعيف الخائف من مضاعفات التهديد باستعمال القوة . ولم يسجل له خلال الحوار الذى دار بينه وبين الجنرال الفرنسى اى موقف حاسم أو قولة تاريخية هامة تعكس رفضه لهاته المعاهدة .

★ ★ ★

ان نشر هاتين البرقيتين اللتين ترجمناهما من اللغة الفرنسية ، من شانه أن يثرى شبكة المعلومات التى تتوفر لدينا عن ملف عقد معاهدة الحماية والتى ما زالت لم تؤرخ بعد بطريقة علمية .

عبد الجليل التميمى



TÉLÉGRAMME

Nº D'arrivée 52

Réexpédié à

à 12 h. 15 m. du

Le 15/5 188

Heure remise 5.15 à la

Marsala

Le 15/5 188

Transmis par Pera

Le Bey de Tunis à Son Altesse le Premier Ministre Cple.

J'informe votre Altesse que le général commandant colonne française que se trouvait ainsi que je l'ai annoncé à votre Altesse à Djedeida s'est approché jeudi soir de ma résidence. Il est venu ... à mon palais accompagné d'un corps de cavalerie et a soumis à ma signature un traité de protectorat en me déclarant qu'il ne quitterait le palais qu'avec ma réponse, pour laquelle il ne m'a accordé que quatre heures. Me voyant sous la pression de la force par la présence d'une armée près de ma résidence, j'ai dû pour l'honneur et pour éviter une effusion de sang signer ce traité sans examen ni discussion aucune en lui déclarant que je signe contraint par la force ...

Mohammed Essadok

نص البرقية الاولى موزعة على ثلاث صفحات

من باى تونس الى سمو الصدر الاعظم . القسطنطينية .

احيط سيادتكم علمنا ان الجنرال ، قائد فرقة الجيش الفرنسى الذى يوجد ، كما اعلنته لكم ، بالجديدة ، قد اقترب مساء الخميس من مقر اقامتى . وقد وصل بعد ذلك الى قصرى يرافقه فيلق من الخيالة . وقد عرض على ، مشروع حماية ، للامضاء . مصرحا أنه لا يغادر القصر الا بعد حصوله على جوابى . ولم يمهلنى لذلك الا أربع ساعات . ونظرا لوقوعى تحت ضغط قوة الجيش الرابض قرب اقامتى ، فقد اضطررت ، (دفاعا) للشرف ولتجنب اراقة الدماء ، امضاء هذه المعاهدة دون (اى) دراسة او مناقشة (لبنودها) ، مصرحا اننى امضيتها تحت التهديد بالقوة (*)

* * *

نص البرقية الثانيـــة

من سمو باشا تونس الى سمو الصدر الاعظم .

لقد ارسلت اليكم برقية بتاريخ 13 جمادى الآخر 1298 ، احطت سيادتكم علما فيها بمحتوى الرسالة التى كان قد ارسلها الى قنصل فرنسا والتى اعلن فيها ، ان الجنرال ، قائد الفرقة الفرنسية ، قد وصل الى الجديدة ، وهو مكلف بابلاغى معاهدة حررتها حكومته . وها انا اشرح لكم ملابسات الحوادث كما حصلت :

ان الرسالة التى حررها القنصل ، كانت وصلتنى قبل ثلاث ساعات من غروب الشمس ، وقد كنت ساعتئذ احضر ردا عليها ، عندما فوجئت بقيام الجيش الفرنسى بمحاصرتىونزوله بالقرب من مقر اقامتى . وبعد اربع ساعات من غروب الشمس ، قام القنصل الفرنسى بالتحول الى مقر اقامتى واخبرنى بوصول الجنرال المؤكد . وبالفعل فقد ظهر الجنرال يصحبه عدد كبير من الخيالة كانوا قد تمركزوا مقابل اقامتى وضربوا حولها سياجا من الحراس .

(*) ارشيف الخارجية التركية باستانبول ملف 524 .

وقد دخل الجنرال الى قصرى برفقة عدد من الضباط حوالى الساعة الرابعة والنصف بعد غروب الشمس . وقاموا بتنظيم اجتماع معى . وقد صرح لى الجنرال : « انه مكلف من طرف حكومة الجمهورية بان يعرض على معاهدة من شانها ان تحل الصعوبات القائمة » ، وبدأ فى قراءة نص المعاهدة .

وبعد ان أنهى قراءتها ، لاحظت ان دراسة محتوى هذه المعاهدة يتطلب الوقت الا ان الجنرال رد على : « انه لا يستطيع الانتظار بعد الساعة الثامنة » . ونظرا لقصر هذه المدة الزمنية ، فقد أردت معرفة ما اذا كان الجنرال خلال ذلك ، سوف ينسحب الى معسكره ، أو وجب على الانسحاب شخصيا . وقد رد على الجنرال : « انه سوف لن يغادر مقر اقامتى قبل ان يتحصل على موافقتى » وقد رددت عليه : « أنه نظرا لهذه الشروط ، فان دراسة المعاهدة يصبح امرا لا فائدة وراءه ، وان الحاحه يفسر بانه وسيلة ضغط للحصول على موافقتى » .

الا ان الجنرال تشبث بموقفه ، وقبل فقط تمديد فترة الانتظار الى الساعة التاسعة مساء للحصول على جوابى . ومن جهة أخرى ، خاطبنى القنصل : (بأن هذه ، هى تعليمات الجنرال التى لا يمكنه ان يحيد عنها ، واضاف ان شروط المعاهدة لا تختلف البتة فى مجموعها ، عن تلك التى اثارها معى فى كثير من المناسبات ، وانه على ضوء ذلك ، وجب على عدم نسيانها . وانه اذا كانت توجد بعض الاختلافات ، فان ذلك لا يؤدى الى اى تغيير هام من شانه ان يستوجب تفكيرا طويلا ...

وعلى ضوء ذلك ، فان القنصل والجنرال ومرافقيه سوف يبقون ينتظرون ، فى غرفة أخرى جوابى ، الذى وجب على تسليمه بعد دعوة المجلس واستشارته . وقد لاحظت لهم انه من المستحيل على ان أوافق على هذه الشروط التى تضمنتها هذه المعاهدة . ولكن نظرا لفرضها علينا بالقوة ، فانه لا توجد امامنا أى وسيلة أخرى لتجنبها .

ونتيجة لهذه الملاحظة ، انسحب الجنرال الى غرفة أخرى طلبا لبعض الراحة . وعندما اختلى بى القنصل ، دعانى الى قبول المعاهدة لمصلحتى الشخصية ومصلحة البلاد التى يحرص ، كما قال ، على ازدهارها . واضاف قائلا : « انه فى حالة الرفض ، فان مخاطر جسيمة جدا سوف تحصل بسبب ذلك ، وانى اتوسل اليكم بالسعى الى تجنبها » . وقد اعدت عليه القول : « بانه من المستحيل على

قبول هذه الشروط المفروضة ، وانني لم أكن أتوقع البتة ان يكـون مـوقف الحكومة الفرنسية بهذا العنف » . وفي آخر المداولة ، وبعد انتهاء المدة المحددة ، تحول الجنرال من الغرفة التي استراح فيها والتحق بي .

وايمانا مني بالوضعية التي وصلت اليها هذه الحالـة ، فـاني لا استطيـع المقاومة دون استعمال القوة ، وعليه فقد اجبرت على الخضوع وليس ذلك بمحض اختياري . بل بالرغم عني . ان مسؤوليتي امام الله وامام العباد تحتـم عـلى المحافظة على حياة وشرف الاهالي .

وقد خاطبت الجنرال قائلا : « نظرا الى أنكم طلبتم مني امضاء المعاهدة ، بالقوة ، فلم يبق لي الا الخضوع » . وقد رد علي : « اني أسجل قبولكم ، دون ان اتوقف امام تحفظاتكم » . وقد أمضيت هذه المعاهدة التي حررها الفرنسيون على نسختين ، من طرفي ومن الجنرال ، في نفس اليوم ، وعلى الساعة السادسة والنصف بعد غروب الشمس . وعلى اثرها غادر الجنرال مقر اقامتي .

تلك هي تفاصيل هذه الحادثة ابلغها الى سموكم ، كما بينت ذلك عن طريق البرقية التي وجهتها اليكم (*) .

الامضاء : محمد الصادق باشا

(*) ارشيف الخارجية التركية باستانبول ، ملف 524 .

رثاء .. لروح الفقيد المناضل* ونّاس بن عامر

شعر : توفيق بن عامر

ألا إنها الأيّامُ كالغفواتِ ... ولكنها حُبلى بما هو آتِ
نام ونصحو كلّ يوم وليلة ... ونحن على الأوهام والغفلاتِ
إلى أن يدقّ الدّهرُ أبواب دارنا ... ويفزعنا بالدّقّ والضرباتِ
ويخرجنا منها إلى غير رجعة ... ويرمي بنا كالصخر في الفلواتِ
كذاك رمانا الدهر في إبن عامر ... كما أبدا لم ترْم كفّ رماةِ
فزعزع أركانا وهدّ دعائما ... وكدّر صفو العيش بالحسراتِ
فما كان ونّاس أبانا وإنّما ... أبوكم جميعا في دُجى النكباتِ
ومنْ أنا حتى أنبري راثيا لهُ ... وأنتم هنا والله خيرُ رُثاةِ
وماذا عساني أن أقول بمفردي ؟ ... لأخشى سريعا أن تجفّ لهاتي
كثيرٌ كثيرٌ ما يجولُ بخاطري ... غزيرٌ غزيرٌ ما يجيش بذاتي
لأخجل أن أرثيك يا أبتي هنا ... بلغو من الألفاظ والكلماتِ
لأجدر أن أبكيك بالأدمع التي ... تفيض من الأجفان كالجمراتِ
وأن أدعوَ الباكين حولي ليثلجوا ... ثراك بمُنهلّ من العبراتِ
ألم تك تبني عزّنا يا حبيبنا ... فمن ذا الذي يبنيه بعدَ مماتِ ؟

ألم تك تجلو غمّنا يا عزيزنا   فمن ذا الذي ياتيه صوتُ شكاة ؟
ولكنني كفكفت دمعي تمثّلا   بما قلتَ لي في آخر اللحظات
فما كنتَ تهوى أن نحس بحرقة   وأنتَ قريحٌ مُسهدُ النظرات
وكنتَ تداوي جرحنا بلباقة   وأنت تعاني غمرة السكرات
وكنت كتومًا للعواطف بينماً   عرفناك حسّاسًا من النبرات
عجيبُ شؤُون أنت كم كنت صابرا   تواجهُ صولاتِ الرّدى بثبات !
فعلمتنا درسا كشأنك دائما   تُعلمُ أبناء الورى بعظات
وعلمتنا كيف الجوى نستلذّهُ   ونهرع للرحمان بالدّعوات
لقد عشتَ حي القلبِ والجسم والنهى   وقضيت عمرا نابضا بحياة
وما كنت ذا داءٍ عضال وإنما   وهي جسمك المكدود من قلبك العاتي
كذا شأنُ من يهوى العلا ويريدها   يقدّمُ قربانًا على العتبات
تعوّدتَ قول الحق حتى ألفتهُ   وواجهت فيه أعظم الصّدمات
وما كنتَ ممّن يجعلُ الجاه همه   ولا كنتَ ممّن يجمعُ الثروات
تجاوزتَ عنها للألى قد تكالبوا   على جمعها من أبخس الطرقات
ووليتَ وجهك شطر ربك تبتغي   رضاه الذي يغني عن الشهوات
ولكنهم من لؤمهم قد تآمروا   بأطماعهم حتى على الصّلوات
فأعرضت عنهم شامخًا متهكما   بأدناس ما حاكوه في الخلوات
وباؤوا بخزي لا يبوء بمثله   سوى طامس للنور بالظلُمات
وأُبْتَ بمجدٍ لا يؤوبُ بنصْفهِ   سوى من تسامى للعلا بثبات
حميتَ الحمى لما دعاك لحزبه   زعيمٌ تصدّى للعدى بحماة
وأيدتهُ في جمعهمْ إذ حملتهم   على قسم الإخلاص في الأزمات
وأقنعتهم أنّ انشقاقا مباركا   يؤمّنُ مسعاهمْ من العثرات
فصدّقتِ الأقدار فألك واغتْدَتْ   نفوس بني الخضراء مبتهجات
فما حبك الأوطان إلا عقيدةٌ   وشعلة إيمان بصدر تقاة

ترى فيه زلفى للمليك ولا ترى ... تزلف مخلوق من النسمات
وتكره أن يعلو ضلال على هدى ... ويخلط بهتانٌ برأي ثقات
وتسخر ممّن لم يكن زارعًا لما ... تنوء به كفّاهُ من ثمرات
فحمدًا إذا ما زارك اليوم ماجدٌ ... صديقٌ صدوقٌ صادقُ العزمات
حليفُ غرام أنت لكن بربه ... تسبّحه في ضحوةٍ وغداة
وتذكره بالليل توقا لقربه ... فتزدادُ شوقا بعد كلّ صلاة
تعجّلت لقياه ولم تذْو زهرةٌ ... من العمر أولانت غصون قناة
وأحببته حبّ الحبيب حبيبهُ ... وناجيته سرًا على عرفاتِ
فياليت شعري ! هل حباك بلطفه ... وأكرم مثوى الأعظم العطراتِ ؟
روى منْ رأى في نومه وهو طاهرٌ ... طهارة أثوابٍ وطهر نياتِ
بأنك مبرورٌ وأنك مسعدٌ ... بجناتِ عدن عالي الدّرجاتِ
هنيئا لك البيت السعيدُ متوّجا ... جبينك فيه مشرقَ القسماتِ
تأخّرتَ عنا اليوم لوْ كنتَ حاضرا ... لأهوى عليك الناس بالقبلاتِ
تأخرت لكنْ روحك الآن بيننا ... تزفّ إلينا أيمنَ البركاتِ
قفوا وقفةً واتلوا عليه ترحما ... مثانيَ تتلى فوق كلّ رفاتِ
ومدّوا إلى الرّحمان كفّا وناشدوا ... مليك السما أن يغفر الهفواتِ
ألا فاجلسوا شكرا على ما دعوتمُ ... فأنتم وأيمُ الله خير دُعاةِ

توفيق بن عامر

ومضات من شمس الخضراء
أو
في الحضارة التونسية المعاصرة

بقلم : محمد الحبيب براهم

الــومضــة الاولــى

او

بطـاقة تعـريف حـالة للامـح حيـة ...

في بلدي تشرق الشمس كثيرا ومع ذلك فقد نعتها التـاريخ بالخضـراء ، والشمس صنو القوة والحرارة والحيوية والوضوح ، والخضرة رمز الحياة والنمو والامن ودفق الخير ...

وشمس الخضراء حبلى لا بمساحات أرضية شاسعة ولا بعدد من السكان ضخم أو بألوان من الموارد كبيرة لكن بهوية خاصة ...

فبلدي محدود المساحة ، محدود العدد ، محدود الموارد ، الا أنه ثرى ثراء نفسانيا خصب خصبا معنويا . ثراء وخصب يضاهيان الارقـام ويتجـاوزان الأحجام ويحددان معالم الهوية الخاصة التي تعد الذاتية أبرز عنصر فيها .

وبداهة أن لكل شعب نكهته في الحضارة الا ان ضوع النكهـة التـونسية قوى وصدى بصماتها عميق ولم يتولد ذلك عن محض صدفة بل لتظافر روافد عدة بلورت هذه الهوية ثم تعهدتها . ومن هذه الروافد :

1 ــ وجود أرضية تاريخية صلبة قوامها حضارات متنوعة مـرت بالبـلاد ولونت الأجيال المتعاقبة تلوينا متلاحقا متوالدا تمخض عنـه طابـع طـريف

تسارعت أصابع تجارب القرون وعناصر الأجيال على أن تجعل منه مزيجا متكاملا انصهر فى تجمع أصيل رسم للبلاد هوية ساطعة فى تداخل عناصرها وتكامل مقوماتها .

2 ـ تجسيم الحركة التحريرية الوطنية لنمط نموذجي فى الكفاح سواء فى الطريق المتبعة أو فى مميزات مضامينها الاجتماعية والفكرية فاكتسبت بذلك أبعادا عملية وعقائدية أثرتها ولونتها بطرافة خاصة ضمن أنواع التحرك التحريرى المعاصر .

3 ـ توخى خط انمائى حركى استقر على مفهوم معين بعد تلمسات متعددة كانت بايجابياتها وسلبياتها دليلا على أن الفكر التونسى متجدد لان طاقته الذاتية لا تنضب . وبرز السعى فى كل تعديل تصحيحى الى تلمس الطريق باعتماد البيئة منطلقا وأرضية وآفاقا وافتراض مضمون مادى وفكرى وعملى للعمل الانمائى يكون الانسان التونسى بذاتيته المتكاملة نقطة انطلاق فيه وجوهر محور به وأخيرا تحديد طرائق تطبيق تتلاءم مع المضمون وتتفاعل مع البيئة فى انصهار خاص ...

4 ـ حركية التواصل أو التعديلات الوفية لذاتية عامة ويتمثل ذلك فى الحفاظ على خيط متين يصل الحلقات بعضها ابتداء من تبلور هذه الذاتية فى المرحلة المعاصرة مما يوحى ويثبت أن الطابع الذى توفقت اليه البلاد أصبح خاصية منزلة فى صلب هويتها وعلامة بارزة فى سبل التعريف بها وما التعديلات المتحتمة على كل واجهة من واجهات العمل مذهبيا أو عمليا الا دليل صحة هيكلية ومناعة حضارية لكل ما من شأنه أن يكون تشويها لمقوماتها أو تطفلا دخيلا على مكوناتها . فاذا كل امتحان بتسرب مقصود أو دس مبطن يكشف تعمق جذور الجوهر الذى تأصل فى عروق الشخصية التونسية كعلامة مميزة كان مخاضها تاريخ حافل وظهورها للحياة حاضر يصقلها ويجعل كل انحراف بها عن منزعها الحقيقى حركة هامشية لا تؤثر فى الصلب بل تزيده تماسكا ومتانة واكتشافا لماهيته .

* * *

... من هذه الأرضية التاريخية الحافلة الصلبة منطلقا ، ومن شرف الحركة التحريرية التونسية أساسا ، ومن الجهاد الانمائى المتعدد الوجوه آفاقا ، ومن

حركية التصحيح الهادف المتواصل حفاظا على جوهر واحد سبيلا ، تتولد ميزة عامة توحد كل العناصر ... انها هذه الذاتية الطريفة فى الشخصية التونسية المعاصرة ذاتية لم يرم بها الحظ سير الزمن بل نحتتها فى صلب تطور الحضارة أصابع قيادية حكيمة سنت بها منهجية فى التفكير والعمل تبحث عن مواصفاتها بمعطيات واقعها معرضة عن المراهم المستوردة والعقاقير الدخيلة والوصفات الطبية الجاهزة أو المحنطة ...

وقد كان لهذه النظرة الذاتية ولتلك المنهجية الطريفة أكثر من مجال ظهور وأرضية ممارسة وسنعرض فى مقالات متتالية الى ألوان هذا الخط الفكرى فى الرؤية التونسية وذلك بالتركيز على مجالات الاضافة الحضارية المعاصرة فى ميادين السياسة والاقتصاد والتطور الفكرى ، اضافة الوفاء للقيم الاصيلة بعد اكتشاف الذات ونحت معالم الآفاق ...

محمد الحبيب براهم

من قصائد الاعداد القادمة

مملكة الصمت .... **محمد رضا جلالي**

البحث عن هدهدة فىاعماق البحر .. **محمد الامين الشريف**

مناجاة قفة .... **عبد المجيد شيبه**

معركة بين الروح والجسد

شعر : عبدالله الزناد

لله فى خلقه حساب وكل أمر له كتاب
فمن صفا قلبه بدين وبالتقى صانه حجاب
له النجاة أمام رب يحفه اللطف والثواب
ومن بذنب غدا كليلا فانه البعد والعذاب

* * *

ويوم بعث ترى خصاما للناس فى بعثهم حساب
يقول جسم بكل عنف وجد فى الموقف اصطخاب :
للروح ويلى فضحت امرى هتكت سترى فما الجواب ؟
انت التى قد أسات نصحى فضاع من شقوتى الصواب
وما استمعت الى نذير قد جد فى شرحه الكتاب
يا ربة السوء خاب سعيى فليقرع اليوم منك ناب
هذا الجحيم ولست أدرى ذهابنا هل له اياب ؟

* * *

أجابت الـروح وهى حيرى   وفى الخصـام لهـا منـاب
انت الذى لو رددت زيغـى   ما كـان فى يومنـا عقـاب
ولاكتسبنـا رضـا إلـه   قد كان فى شرعه الصواب
رمت بنا فى الـردى كلانـا   ضـلالة مـا لهـا حجـاب
يا ويلنا هل نطيـق صبـرا   عـلى الجحيـم وذا مصـاب
والنـار فى حرهـا سعيـر   له ـ ويـا هولـه ـ التهاب
لكـن ربـى غفـور ذنــب   وليـس فى عفـوه ارتيـاب

* * *

وجـاء مـن ربنـا مليـك   للـوعظ فى لفظـه خطـاب
وقـال : مثلكمـا كفيــف   ومقعـد مـا لـه انقــلاب
اذ ابصرا فى الحمى ثمـارا   وليـس فى نيلهـا طـلاب
قال البصير : انـا أراهـا   لكننـى عـاجـز أهــاب
قال الكفيف : انـا قـديـر   والنور من ناظـرى سـراب

* * *

فاتفقـا ان يكـون ركــب   يتـم مـا بينـه النصــاب
يرى الكفيـف بعيـن خـل   وفيـه للمقعــد الـركـاب
واغتصبـا من ثمـار قـوم   بـدون حـق وذا مصــاب

* * *

فيا ترى من غـدا مسيئـا   ومن غـدا دونـه العقـاب ؟
كـلاهمـا مـذنـب لعمـرى   كـلاهمـا سعيـه تبــاب

عبد الله الزناد

محمّد الحبيب رائدا

بقلم : محمد الهادي المطوي

ـ 3 ـ (*)

ـ محمد الحبيب والمسرح :

ان لمحمد الحبيب شغفا بالمسرح كبيرا فكان الفن الذى أعطاه غاية اهتمامه ، وبالغ عنايته سواء بالتدريس او التأليف أو الاشراف على الجمعيات المسرحية وفرقها التمثيلية .

ويعود هذا الاهتمام بالمسرح عنده الى عوامل . منها : ان أباه كان مغرما بالمسرح فأورثه هذا الغرام ، حيث كان يحمله معه الى مشاهدة التمثيليات . وفى ذلك قال : « أذكر أنى ذهبت مع والدى رحمه الله للمسرح لمشاهدة التمثيل . وكان منهواة المسرح والسينما فى عهدها الاول. وشارك فىمشروع سنيما بالقيروان على أول عهدها . واحترقت هذه السنيما فى احدى حفلاتها الرمضانية . كما أذكر أننى رافقته فى خريف عام 13 أو 14 لحفل بالباساج لمسرح صيفى يشتمل على جوقة طرب وفصل مضحك عنوانه (جينا نصطاد اصطادونا) ... » (35)

اما العامل الثانى فيعود الى معلميه السابق ذكرهما . فقد كانا لشغفهما بالمسرح يحدثان تلاميذهما عن ذلك ، بل كان معلم العربية يكتب لهم النصوص المسرحية ، أما معلم الفرنسية فكانوا يعلمون عنه أنه يحترف التمثيل ، وله فى ذلك مشاركات . منها مشاركته فى مسرحية هملت التى قدمتها فرقة الشهامة العربية بدور الخيال ، كما مثل دور عطيل فى المسرحية التى تحمل هذا الاسم . وعن أثر هذين المعلمين قال لنا محمد الحبيب : « فحصل لى ميل للمسرح ، وطلبت من أبى ان يصحبنى معه للمسرح » (36) . وكان قبل ذلك يمتنع عن الذهاب اليه لانه رأى فى الفصل المضحك الذى ذكره من قبل رجلا يحمل بندقية فحصل له من ذلك خوف وأصبح يمتنع عن الذهاب الى المسرح .

(*) تابع لما نشر فى « الفكر » ع 7 ـ س 26 ـ افريل 1981 .

(35) مذكرات محمد الحبيب ـ بلادى 23 جويلية 1979

(36) ن. م.

والاثر الثالث يعود الى التمثيليات المدرسية التى كان يقوم بها التلاميذ فى آخر السنة . فقد ذكر لنا أنه بينما كان فى السنة الثالثة شاهد تلامذة القسم الخامس يؤدون مسرحية أعدها تلميذ منهم وهو صديقه أحمد توفيق المدنى فأراد تقليده والسير على منواله بأن عمد الى اخراج حكاية الحجاج بن يوسف الثقفى والفتية الموجودة فى كتاب القراءة المبتكرة لابراهيم زيدان اخراجا مسرحيا . ولما رأى معلم العربية محمد على بن جعفر اعتماده بذلك شجعه وأرشده حتى استقامت له التمثيلية ، وبعد أداء التلاميذ لها فى الحفل المدرسى نال جوائز من المدير والمعلم وغيرهما .

وكان من نتيجة كل ذلك ان ولع بالمسرح أى ولوع حتى قال يصور فى نفسه هذه الخاصية : « وهكذا غرس فى صميم قلبى حب المسرح ... فركزت للمؤسسين أستقى منهم أنباءه فى عهد نشأته ... وفى كل عام من أعوام حياتى أزيد شغفا بالمسرح وأجمع ما كتب عنه ، وواظبت على الحضور فى كل حفلات المسرح سواء العربية أو الفرنسية ... » (37) .

وهذا الهيام بالمسرح جعله لا يكتفى بمشاهدة التمثيليات ، بل انضم الى الجمعيات المسرحية بصفته عضوا عاملا ، والى الفرق التمثيلية بصفته مرشدا ومخرجا . ويذكر محمد مواعدة أن أول نشاط لمحمد الحبيب فى دنيا المسرح كان بجمعية الآداب منذ سنة 1919 (38) . أما المنصف شرف الدين فذكر فى الاربعينية نقلا عن ترجمة أملاها محمد الحبيب نفسه على تلامذته بأنه كان دخل عالم التمثيل مصححا للعربية ونصيرا للآداب سنة 1921 .

ولما زار جورج أبيض (1880 — 1950) تونس فى سنة 1921 اتصل به محمد الحبيب للاستفادة من خبرته المسرحية ، بل انه تتلمذ له عند اقامته بتونس وبعد انفصاله عن فرقته التى عادت الى مصر ، وتوليه ادارة « جمعية التمثيل العربى » التى انبثقت عن انصهار الجمعيتين المتنافستين : الشهامة والآداب .

وتعلم محمد الحبيب على يدى هذا المسرحى الكبير فن الاخراج والتمثيل ، وقد شاركه فى هذا الشرف صديقاه البشير المتهنى (1901 — 1972) ومحمد العقربى اللذان سيكون لهما شأن كبير فى المسرح التونسى المعاصر .

---

(37) ن. م.

(38) محمد مواعدة ، حركة الترجمة ... : 177

وظهر نشاط محمد الحبيب المسرحي بعد ان اكتسب الخبرة اللازمة لكل من يتعاطى هذا الفن الجماهيري . ففي سنة 1923 أصبح مساعد مخرج لجمعية التمثيل العربي . وفي اكتوبر 1925 كان رئيسا لهواة الفن . وأسس مع البشير المتهني سنة 1927 جمعية المستقبل محتفظا لنفسه بمنصب كاتب عام لها (39) .

وفي سنة 1929 حسب ما قال محمد السقانجي (40) رأس فرقة السعادة التي تأسست سنة 1924 (41) ، اما حمادي بن حليمة ومحمد مواعدة فيجعلان رئاسته عليها سنة 1931 (42) . بينما جعل محمد الفاضل ابن عاشور ذلك سنة 1930 (43) . ويظهر ان هذا التاريخ هو الصحيح لانه هو الذي أملاه على تلامذته بنفسه حسب ما ذكر المنصف شرف الدين في كلمة الاربعينية .

وفي ظل ادارته لهذه الفرقة التي دامت الى سنة 1936 (44) وضع محمد الحبيب « مسرحيات مستمدة من التاريخ التونسي أو التاريخ الاسلامي عامة مثل الواثق بالله الحفصي ، وفتح فارس ، ومسرحيات مستمدة من صميم الحياة الماثلة مثل جيل اليوم » (45) .

ويظهر أنه كان منذ سنة 1935 يجمع بين ادارته لفرقة السعادة ، وبين الادارة الفنية لجمعية التمثيل العربي اعتمادا على ما استنتجناه من كلام شرف الدين الذي جعل سنة 1935 هي سنة ادارته لفرقة التمثيل العربي (46)

ولما سعى مصطفى صفر شيخ مدينة تونس ورئيس بلديتها الى توحيد الجمعيات التمثيلية : السعادة ، والمسرح ، والمستقبل التمثيلي في جمعية واحدة باسم الاتحاد المسرحي سنة 1936 اختير محمد الحبيب لادارتها الفنية (47)

---

(39) حمادي بن حليمة ، نصف قرن من المسرح التونسي (بالفرنسية) : 93

(40) محمد السقانجي ، محمد الحبيب المحامي . الحياة الثقافية عدد 10 ، نوفمبر 1976 : 143

(41) راجع عن هذه الفرقة احمد توفيق المدني ، حياة كفاح : 333/1 وحمادي بن حليمة ، نصف قرن من المسرح التونسي : 91 — 92

(42) حمادي بن حليمة ، ن. م. : 92 . ومحمد مواعدة ، حركة الترجمة .. : 177

(43) م. ف. ابن عاشور ، الحركة الادبية : 185

(44) مواعدة ، ن. م .

(45) ابن عاشور ، ن. م.

(46) المنصف شرف الدين ، من كلمته في مهرجان الاربعينية .

(47) ابن عاشور ، ن. م. : 185

ومن المعروف ان هذه الجمعية أصدرت مجلة باسم «المسرح» في غرة ماي 1937 وبادارة الهادي صاحب الطابع .

وفي سنة 1939 كون محمد الحبيب جمعية الكوكب التمثيلي التي أصبح في سنة 1942 مديرها الفني (48) « على نفس الاصول التي كان يعمل بها في جمعية السعادة . وتولى هو وكتاب آخرون وضع مسرحيات ذات قيمة مثل الناصر لدين لله ، ويوم غرناطة ، والزوجة الثائرة لمحمد الحبيب ، وولادة وابن زيدون لعبد الرزاق كرباكة ، والمنصور بن أبي عامر لاحمد المختار الوزير وزيادة الله بن الاغلب ، والحكم الاموي والمعز الصنهاجي لخليفة السطنبولي » (49) .

وكانت هذه الجمعية تعتمد شعار « الفن فوق كل اعتبار » وهو شعار يعبر ولا شك عن أهمية المسرح عند أعضائها ، وخصوصا عند مؤسسها محمد الحبيب . ومن حرصها على بث الفن المسرحي في البلاد وترويجه بين كل الفئات انها كانت تقدم حفلات للطلبة مجانا من ضمن اثنتي عشرة حفلة كانت تلتزم بتقديمها سنويا (50) . وقد تواصل نشاط هذه الجمعية الى سنة 1952 (51) ، أي الى ما بعد تعاطي محمد الحبيب لمهنة المحاماة بسنة واحدة .

وبالاضافة الى كل هذا النشاط الغزير فقد كان عضوا مؤسسا للجنة الدفاع عن المسرح ، ولفرقة بلدية العاصمة ، كما كان عضوا بلجنة التوجيه المسرحي منذ انشاء وزارة الشؤون الثقافية بعد الاستقلال . ويندر أن لا يكون لمحمد الحبيب وجود في كل ما يمت بصلة الى النشاط المسرحي في بلادنا : من مثل

---

(48) هذه رواية المنصف شرف الدين اعتمادا على الترجمة التي أملاها محمد الحبيب على تلاميذه . ويرى ابن عاشور ان سنة تأسيس الكوكب هي 1938 (الحركة الادبية : 185) . اما محمد السقانجي فيكتفي بالقول : انها في فاتح الاربعينيات (الحياة الثقافية ، العدد 10 ، نوفمبر 1976 : 143) . بينما يرى حمادي بن حليمة (نصف قرن .... : 114) ومحمد مواعدة (حركة الترجمة ... : 177) ان سنة التأسيس هي 1942 .

(49) ابن عاشور ، الحركة الادبية : 815

(50) من كلمة المنصف شرف الدين في الاربعينية .

(51) شرف الدين ، ن. م. ويذكر ابن حليمة انها سنة 1951 (راجع كتابه السابق ذكره : 120) وبذلك قال مواعدة ، (حركة الترجمة ... : 177)

المباريات المسرحية ، والمعارض التى يعود اليه الاشراف عليها لضلاعته فى المسرح ، وعلى الخصوص التونسى منه .

هذا هو نشاط محمد الحبيب المسرحى داخل الجمعيات والفرق والدوائر الرسمية . اما عن نشاطه فى ميدان التأليف فانه كان بحكم اشرافه على الفرق مدفوعـا الى البحث عـن النص المسرحـى ، وهو ما كان يعز وجوده أحيانـا ، فتولى هو بنفسه وضع مسرحيات كثيرة ، منها فضلا عما سبق ذكره : الاسد الافريقى طارق بن زياد (فى أربعة فصول) ، يوم عند أبى العلاء (استعراض ليوم من أيام فيلسوف الشعراء فى فصل واحد) ، وأعيان الحرب بالاشتـراك مع محمد زروق ، وأبو عبد الله الصنعانى ، وأبو مسلم الخرسانى ، ومنوعة مسرحيـة فى فصل واحد بعنوان زوجها نشرتها أخيرا مجلة الاذاعة والتلفزة بمناسبة وفاته (52) . ومن المسرحيات العامية وضع : كل حد وفكره ، أو نقد النقاد (وهى عرض تحليلى لآراء المجتمع عن شخصيات ورواية عبد الباسط) كتبها خصيصا لجمعية الكوكب التمثيلى عام 1944 ، وبنت العنبة نتوب عليهـا (فصل أخلاقى مضحك ، بقلمه واخراجه) .

ومن المسرحيات الكثيرة التى هذبها أو اقتبسها الرشيد والبرامكة (فى أربعة فصول) ، وعنترة (مسلاة تاريخية لاحمد شوقى ، تهـذيب للكـوكب التمثيلى) ، وروميو وجوليات (اقتباس عن مأساة شكسبير) وليلى وقيس أو مجنون ليلى (اقتباس عن مجنون ليلى لخير الله) (53) .

ويذكر محمد مواعدة ان محمد الحبيب نقل عن الفرنسية مع البشير المتهنى غادة الكاميليا ، والسفاح (فيليب الثانى) ، والافريقية (54) ويقول ابن حليمة إن محمد الحبيب عرب مع المتهنى وم . دانيد مسرحية الحريم للكاتب الايطالى فاستون كوستنا (55) . وفى مجلة المسرح التى أصدرتها جمعية قدماء مدرسة التمثيل العربى نجد أنه عرب مع المتهنى أيضا الاحدب لبول فيفال ، وطيب بالرغم عنه (56) .

---

(52) مجلة الاذاعة والتلفزة عدد 460 ، 16 فيفرى 1980 : 26 — 28
(53) استقينا اسماء هذه المسرحيات من المعرض الذى أقيم لتآليـف محمـد الحبيب بمناسبة الاربعينية .
(54) محمد مواعدة : المرجع السابق .
(55) ابن حليمة ، ن. م. 97 .
(56) مجلة المسرح (قدماء التمثيل) س 1 عدد 1 ، جانفى 1959 : 24

ومع محمد زروق نقل أيضا ثلاث مسرحيات للكاتب الفرنسي لابيش ، (57)

ومع صالح رضا الاحمر (1904 ـ 24 / 12 / 1959) نقل مسرحية روى بلاس (أو العصامى) لفكتور هيقو (58) ، وقد نشرتها مجلة المسرح (للاتحاد المسرحى) فى حلقات بداية من عددها الاول فى غرة ماى 1937 .

ومع عبد الجليل بن علي عرب مسرحية ابن السبيل (59) ... الخ ..

ونود هنا ان نلاحظ ملاحظة هامة ، هى ان محمد الحبيب وان كتب بعض مسرحياته بالعامية فانه لم يكن من أنصار اللهجة الدارجة ، والعكس هو الصحيح أولا لان ما كتبه بالعامية هو قليل ، وثانيا لان دفاعه عن الفصحى كان يفوق كل دفاع ، حتى أن هذا الدفاع كان من جملة الاسباب التى قربته من حسن الزمرلى رجل المسرح المعروف الذى حارب فى سنة 1944 أنصار المسرح العامى (60) . ويعزو ابن حليمة مساهمة محمد الحبيب فى النصوص المعربة الى هذه النزعة فيه لئلا يجيء النص المعرب عاميا او عربيا ضعيفا وكذلك الى عدم اجادته للفرنسية الاجادة التى تمكنه من الترجمة الدقيقة (61) .

ومن مطالعة عناوين المسرحيات التى الفها أو ساهم فى اقتباسها وتهذيبها يبدو لنا أن محمد الحبيب كان مهتما بموضوعين أساسيين . هما : التاريخ والمجتمع . ولا شك فى ان هذا الاهتمام يعود الى عوامل متعددة أهمها الاصلاح الاجتماعى من جهة ، ومحاربة الاستعمار الفرنسى ، انطلاقا من التاريخ القومى والعربى من جهة أخرى .

وهكذا يتبين لنا ان المسرح كان عند محمد الحبيب جزءا من العمل السياسى والاصلاح الاجتماعى والاخلاقى . واذا كان الامر على هذه الصورة فلا نعجب اذا وجدنا رجال السياسة يولون المسرح أهمية بالغة فيتبنون الفرق التمثيلية كما تبنى الحزب فى أول عهده النضالى فرقة السعادة التى تولى

---

(57) مواعدة ، ن. م. : 177

(58) ن. م. : 178

(59) المسرح (القدماء ..) س 1 العدد 1 ، جانفى 1959 : 24

(60) من كلمة حسن الزمرلى فى الاربعينية .

(61) ابن حليمة ، ن. م : 158

ادارتها احمد توفيق المدنى الامين العام المساعد للحزب الحر الدستورى التونسى وقتئذ . كل ذلك لانهم وجدوا فى المسرح منفذا حيا يتصلون فيه بعقول المواطنين وقلوبهم ، فالمسرح عندهم وسيلة توعية وايقاظ لا وسيلة متعة وربح مادي وكفى (62) .

ولم يقتصر نشاط محمد الحبيب المسرحى على التأليف والاقتباس والترجمة للنصوص المسرحية ، بل كان أيضا يحاضر عنه على منابر الجمعيات الثقافية ، ويساهم فى الندوات التى كانت تعقد أحيانا حتى فى بيته الذى كان يكرم فيه الممثلين (63) وفى سبيل المسرح رهنه على ما ذكر الهادى العبيدى ، وهذا أمر لم يختص به محمد الحبيب وحده فقد فعل البشير المتهنى مثل هذا الصنيع خمس مرات .

وكان الى جانب ذلك يكتب المقالات فى نقد المسرحيات والتعريف بها ، كما كان يكتب الدراسات المطولة عن تاريخ المسرح التونسى والعالمى منذ أقدم عصوره الى عصرنا الحاضر . وكانت هذه الدراسات التى تتجلى فيها وفرة المعلومات ، والتى لم تزدها الايام الا غزارة كما أشار هو نفسه فى آخر حلقة من مذكراته ، عمدة للدارسين ، ومادة غنية لما أنتجوه أو حاضروا به . ونحب هنا ان نسوق للقارىء شيئا من تلك الدراسات ليتبين منها القارىء اهتمامات محمد الحبيب الفنية والتاريخية والادبية :

- حول رواية السفاح . النهضة 22 نوفمبر 1929

- سوانح عن التمثيل بتونس ، فى حلقات ، النهضة 20 ماى 1932

- الجلاء الاندلسى الاخير . الثريا س 1 ، عدد 2 (جانفى 1944) .

---

(62) من طريف ما يذكر فى هذا السياق ان الاستعمار الفرنسى كان قد منع فى سنة 1925 فرقة السعادة من تمثيل مسرحية طارق بن زياد . وهنا قام أحمد توفيق المدنى مدير الفرقة وقتئذ ليقدم رواية صلاح الدين التى عوضتها أشار الى هذا المنع فأثارت كلمته حماس الجمهور ، واعجابه بموقف فرقة السعادة التي لم تموه على الجمهور لتدارى السلط الاستعمارية . ويذكر المدنى ان كلمته تلك كانت من جملة اسباب طرده من تونس . راجع ، حياة كفاح للمدنى ، 1/333 - 334

(63) راجع فى ذلك مجلة المسرح (قدماء التمثيل) عدد 4 اكتوبر 1960

ـ أدب المسرح عند العرب . الندوة السنة الخامسة عدد 1 ـ 2 (جانفي ـ فيفري 1957)

ـ نشأة المسرح العربي (1) : مجلة المسرح (قدماء التمثيل العربي) س 1 عدد 2 (أفريل 1959)

ـ نشأة المسرح (2) : ن ـ م ـ عدد 3 ـ جويلية ـ سبتمبر 1959

ـ صحف مختارة من تاريخ المسرح . ن. م. س 2 عدد 1 وعدد 2

ـ تاريخ نشأة المسرح العربي ن. م. السنة 2 عدد 3 ـ جويلية ـ سبتمبر 1960 .

ـ من أساطير العرب عن نشأة الموسيقى . ن م عدد 4

ـ الكتابة المسرحية . ن. م. السنة الثالثة ، العددان الاول والثاني من جانفي الى جوان 1961

ـ المسرح ووظيفته في الادب والمجتمع . محاضرة ألقاها على منبر جمعية قدماء التمثيل العربي بقصر الجمعيات (دار ابن رشيق الآن) ن. م.

ـ الغناء بافريقية . السنة 4 العدد 11 (جويلية ـ سبتمبر 1962)

ـ الادب المسرحي والسابقون اليه . مجلة المعرفة (سوريا) س 3 عدد 34 كانون الاول 1964

ـ والمسرح والمسرحية . مجلة المسرح والسنما . عدد 1 س 1 ، سبتمبر 1965

ـ مقدمة لكتاب الصادق الرزقي الاغاني التونسية ، طبع الدار التونسية للنشر 1967

ـ تطور الموسيقى العربية بتونس . جريدة العمل أعداد 5 و 6 و 8 أفريل 1972

ـ التراث الفني في تونس . دراسة ضمن كتاب التـراث العـربي وطـرق عرضه . نشر وطبع وزارة الشؤون الثقافية . تونس 1978

ونحن نكتفي بهذا العدد من المقالات والدراسات ، ففيها دلالة كافية عـلى اهتماماته وشواغله الفنية في مختلف جوانبها .

ـ صفته واخلاقه :

ومحمد الحبيب رجل قصير القامة نحيف الجسم يبهرك بسعـة تفكيـره

ورزانة عقله وتواضعه ورقته ووداعته . كل ذلك مع صراحة فى القول وصلابة فى الحق وشدة فى المواقف خاصة ما تعلق منها بالعقيدة والاخلاق والنظريات المسرحية التى يعتنقها (64) . لم يكن يبخل بما عنده على أحد مهما كان شأنه جاءه مستفسرا وسائلا . ومازلنا نذكر لطفه وأريحيته لما زرنا بيته ربيع سنة 1973 صحبة الاخ صلاح الدين القاسمى بمنزله الكائن بتربة الباى للاستفسار عن بعض القضايا الخاصة بالمسرح التونسى كانت عرضت لنا عندما كنا بصدد اعداد كتاب «أدباء الباكالوريا» الذى أدرجنا فيه نصوصا عن المسرح التونسى ومما صرح لنا به فى ذلك اللقاء أن جل المعلومات التى وردت فى مقال الدكتور محمد فريد غازى كانت من عنده (65) ، وهو يشير بذلك الى السطو الذى تتعرض اليه أفكاره وأحاديثه دون ان يعطى حقه الكامل من الاشارة والتنويه . كما أعلمنا أنه قدم الى وزارة الثقافة أحمالا من الوثائق المسرحية دون مقابل ، وهى حصيلة عمره الكامل جمعا وتوثيقا . وقد أحسسنا فى صوته وهو يذكر لنا كل ذلك رنة الاسى والحزن ، وكأنه أراد ان يشعرنا بأنه بالرغم من ذلك لم يلاق الحظوة التى يجب أن يلقاها رجل مثله كان قد وهب الجزء الاوفر من حياته للمسرح التونسى بخاصة ولمشاريع ثقافية عديدة بعامة . وقد دلت التجربة على صدق فراسته ، فما هو الدكتور على الراعى مثلا يؤلف كتابا عن « المسرح فى الوطن العربى » ولا يتعرض الى ذكر اسمه فى القسم التونسى مع من ذكرهم ولو مرة واحدة (66) .

ونحن نأمل فى النهاية أن تتاح لنا فرصة أخرى نلتقى فيها مع القارىء لندرس بعض مسرحياته وآراءه فى المسرح نظرية وتطبيقا (67)

محمد الهادى المطوى

---

(64) توفيق بوغدير : ثلاثة لقاءات مع محمد الحبيب – مجلة الاذاعة والتلفزة عدد 461 (1 مارس 1980) .

(65) محمد فريد غازى ، المسرح العربى تاريخه واتجاهاته . الفكر (عدد خاص بالمسرح) مج 6 عدد 10 ، جويلية 1961 .

(66) على الراعى ، المسرح فى الوطن العربى ، سلسلة عالم المعرفة . عدد 25 . جانفى 1980 . نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والاداب ، الكويت .

(67) تتميما للفائدة نضيف الى المراجع السابقة ما يلى :

أ – هل تريد أن تعرف محمد الحبيب ، الثريا س 2 عدد 12 ديسمبر 1945

Faouzia Mezzi : Quand Hassen Zmerli raconte M^d Lahbib. Dialogue n° 285 - 18 Fevrier 1980.

فدائي يتحدث

شعر : رجب بن مهني

أنا رجل طاردتني سيوف لانني الى الذل لم أنحن
أخي قد تنكر .. حتى أبي قد تنكر .. آه من الفتن !
وتاجر باسمي سماسرة الار ض .. كل المتاجر تعرضني
ويغتصب الأرض مني عدوي ويمضي لغيه لا ينثني
ولست أهاب الزوابع ، إني لزوبعة من قوى الزمن
ولست أهاب الرعود فرعدي دويه يقضي على محتني
وفي البندقية آمال شعبي هي النار نور الى الوطن

* * *

لقد ظلموا اليوم عز بلادي فداسوا على الأرض والابرياء
وشادوا على جثث الأهل صرحا ولكن سيهوى كأي بناء
فالغام شعبي .. وغضبة شعبي.. تحطم حتى بروج السماء
تطهر ما دنسته الايادي وتقضي على الاثم والادعياء
فللحقد في النفس درب وحيد يجدد معنى الصفا والاباء

* * *

فتلك الخيام التي تتراءى كأنفاس صبح وراء الحدود
ستشرق نورا على الارض حرا وتخفي الاسى في عميق اللحود
وتبني صروحا وتعلي البناء وتفرح بالبشر في يوم عيد
وتقهر سيل الغزاة وتمحو سطور الهوان ، وقيد العبيد
فيا شعب ، إن النضال طويل .. وصبرك بركان عزم عنيد

رجب بن مهني

أعمــاق بحريّــة

إبداع : نعيمة الصيد

عندما يصير الموت فى الصمود ولادة ...

نظر فى سماء عينيها المتوهجة بالطمأنينة ...

العامرة بطيور البراءة ...

قــال : أنا خائف ... الاحباط يحاصرنا ... الخوف شوك سريـريا ...

طوفــانه زلــزال ...

خبيئيني فى صدرك ... خبئيني أغنية خضراء ترفل بالأمانى ...

حلما أبيض براقا ...

ضمته ... ضمته كعذوبة الحلم ... كلطف الغيث ...

قــالت : لا تخف يا طفلى ... ابق على صدرى حلما لؤلؤى الوهج ...

يصحو وينمو فى مدى فكرى ...
فلنقطع قضبان سجن الخوف ...
نحطـم أغــلاله ...
نفقأ عيون العسس المنتشرين عند نقاط التفتيش ...
يــا حبـى ...
انتــزع عمقــى ...
افتــح اسفــارى .
غص فى عمقى البحرى ...
خذنى نسحق اقبية الموت ... الجوع ...
فأنا مثلك وحيدة ...

ابحث عن نبع يطفىء ظمئى ...
عن رداء يبعثر فى دمى الدفء ...
ينشر فى قلبى أشرعة الحب ...
يشعل فى كل شرايينى أنغام الفرح المخضل ...
فأنا امرأة ... يا عاشقى ... اثقل جفنى الحزن ..
أنا امرأة تحاصرنى العيون الملأى بالزيف ...
وكلمات القهر ترغو بالزبد الآثم من حولى ...
لكن قلبى ما زال يصرخ فى وجه الريح ... الاعصار ...
انـك ...

سـر همسـى ...
لا تخـف يـا حبـى ...
سأحـرق كـل وثـائقى ...
أجـوب بحـار الصمـت ...
أغـالب ذل الأيـام الثكـلى ...
ولـن أتكلـم ...
لـن أتكلـم ...
لـن أصـرخ أننـى عـاشقة ...
إننـى عـاشقة ...
سأسكـر مـن عينيـك بألحـان عشقـى ...
ويكبـر طيفـك فى داخـلى ...
يخضـر الأمـل ... حبـى ...
ونبيـذ العشـق يصـاعد مطـرا ...
يسقـى شـرايينى العطشـى ...
يسقينـى ...
ضمنـى ...
ضمنـى كمـا البـرق يضـم الرعـد ...
كمـا البـذرة تحمـل نبـض الجـائعين ...
ضمنـى ...
ضمنـى ليشـرق فجـر العشـاق ...
يجتـاح الاحـزان ...
فبيـن ضلـوعى أحمـل سـر التفـانى ...
دثـرنى ...

دثرني فجسدي يا صغيري معجون بالرغبة يتقيأ بردا ...
أنا امرأة ... صفعت سنابل شوقي للقاءات العيون الحالمة ...
ومـا ارتحـت ...
أنا امرأة ما إنحنت للرياح والعواصف طواحين هوائي ...
رغـم تعـب قلبـي ...
رغـم بحـة صـوتي ...
رغم جرحي المصلوب على مقصلة الحب ... ذنبي ...
فأجفاني لن تكل النوم على قارعة الاحلام ...
عـلى قـارعة العشـق ...
رغم ما أراقوا على فخذي من مداد القهر ...
رغم انهم حاولوا ذبح صوتي ...
حتى لا يخترق جدران الاسمنت ...
حتى لا يغيض بيادر احلام ترسخ في داكرة العشق ...
أنا امرأة اقتلعت مساميري ...
خنقت جلجل عذابي ...
وهـا أنـت أتيـت ...
أتيت شاطئا ... أرسي فيه سفينتي التائهة ...
أنسـى فصـل الجـدب ...
فصـل القحـط ...
فصـل الوجـع ...
وأقبلـك ...
أقبلـك جنونـا يـا عشقـي ...
يـا حبـي ...
أنا امرأة ضربت بصمودي جمجمة الصخر ...
وركضـت ...
ركضـت امتـداد السنيـن ...
امتـداد دمـي ...
امتـداد عمـري ...
وانتهيـت اخضـرارا لفـرحي ...
ازدهـارا لوجـودي وصمـودي ...

نعيمـة الصيـد
في 25 ـ 3 ـ 81

عندما تغني الجراح

شعر: كمال قداوين

على شفتي تمتمات غريبه ،
وأجراس شؤم تناهت لسمعي قريبه
يرن صداها على مسمعي ،
فيغفو سؤال يعشش منذ زمان
ويخفق في أضلعي :
لماذا لدينا طقوس ارتياد الزعامات فيها يخامرنا
ألف شك وريبه ؟!

* * *

تناقلت الطير أصداءنا ...
تناسلت الشهوات لدينا وما انسلخ العشق عن
قشرة الطلق ، عن وجع النزوات ..
ولا من تعود منا اغتيال السلاحف والنقمة المشتهاة !
تعشقت الأمنيات الزغاريد في ليلة العرس ،
انعتاق الأناشيد في دوحة الانتصار ..
تساءلت الريح في فلوات المسارب عن أغنيات
التلاقح في هضبة الاخضرار !..
وعن ثورة الملصقات العريضة فوق سفوح الجدار
وعن رغبة الانتماء المعانق أفق المحبة ،
كنه الفخار ،
تساءلت الريح كيف تلاشى الغرام رويدا ...

لماذا تناءى النهار ؟.

* * *

ترقب : أخى إن ليل التباريح دوما طويل
ولست الوحيد بهذى الفلول ،
ترقب ! أتحلم بالماء فى موحشات القفار
وترقب ضوء النهار !
أتحلم يأتيك نيرون فى صوته وشوشات الغرام ؟
ويكبر فى ظلمات الدياجى نداء النوارس ،
يعلو هديل الحمام ؟!..
تدفق ! ألا إنك المد والجزر فى مضجع الحالمين ،
ألا إنك البدء والمنتهى ،..
وآنفراج الضياء بأروقة الزمن المشرئب لشمس السلام !
تدفق ! فهذى المتاريس مسكونة بالرصاص
وهذى العصافير موصولة بالخلاص !
وهذى الجراج تغنى على نخب الظامئين
لفجر القصاص !.
سينتحر اليأس فى هجمة الضوء
يثمر حقدا دفينا .
تراك تصادر ألوية الخزى أم تنسج الليل
أوسمة الناعقين بدنيا الخراب ؟...
تطارد فى الردهات سؤالا عقيما ،
وتبغى الجواب ؟...

* * *

كثيرون هم هؤلاء الخوارج فى أمتى اليوم
هل قد تدفق فيهم نداء السياده ؟

أراهم يعشش فى عتبات هواهم نخيل التحدى
يمد الجسور لدرب التصدى ..
هو الغيظ يسكن تلك الحناجر ،
يطلق منها رصاص التجذر دون هواده ،
يدمر وجه السياده ،
ومعنى السياده !
ويحفر درب الفدا والرياده ،
هو المقت فينا تجاوز بوابة المستحيل ،
وخلف الحصار ، كتائب زحف طويل ، طويل
فمن يمنع اليوم هذا الحصار ؟.
ومن يحطم الجسر ، من يعلن البدء ، بدء الرحيل ؟!

* * *

أراهم عصافير يثقلها البرد حزنا حفيفا
كصفصافة هزت الريح أغصانها فى العراء !
فلا الريح لانت !
ولا الدوح ناخ بكلكله للوراء !

كمال قداوين

زمن للعودة وآخر للابتعاد ..

قصة : يوسف سلامه

فيما كان الصباح يتلاشى ، وآثار النوم وطول السهر تفارق الوجوه ، اشتاق الى رشفة قهوة مرة ، تصعق أعصابي وتحرك احساسي . أشربها قبل أن أمتطي القطار الرابط بين الشمال والجنوب .. (ولا داعي أن أقول ، انني أسافر ، دائما في اتجاه الشمال .. مع أن هذا لا يعني في كل الاحوال أنني أشارك بعضهم في اعتبار الجنوب موقعا مختلفا عن غيره من البقاع ، بشمسه ، وقيظه ، ولهيب صحرائه ، وبرودة لياليه ..)

ولنا نحن أبناء الجنوب ما يدفعنا لامتطاء ظهور البهائم ـ وقليل منا ، من تخلى عنها ، وأصبح يستقل القطـــار ..

ويقول الشيخ سعفـان وقد أحطنا به ، بعد ان يكون أحدنا قد تطـوع فتسلم دابته ، ليعطيها العلف ، ويسقيهـــا :

ـ ان شاء الله في الميسرة ...

ثم يلتفت الى خميس ولد صلوحة الدرباكة : وأنت يا خميس ، سأعـول عليك ولا داعي في التأخير كما فعلت هـذا الموسم .. عد حالما أبعث فـي طلبك .. لكن قبل ان تسافـر لا تنس ان تمر بدكان الحـاج ، بعد صلاة العشاء ، سأعطيك شيئا تسلمه ... ومن غير ان يتم يكون خميس قد فهم . وقد تعود ان يفهم كل حركة او اشارة تصدر من الشيخ . وقد تعود ان يلبي كل طلباته . لذلك منحه الشيخ سعفان ثقته الكاملة . فقد جربه المرار العديدة ، واكتشف أنه ابن حلال . ويمكن أن يعول عليه . فلا يستغني عنه ، بل يطلعه على كل شؤونه . وفي أحيان كثيرة يتشاور معه . ويقول خميس ولد صلوحة الدرباكة ، وهو يتلهى باعادة غرس نبتة قد خرجت عن موضعها :

ـ الرأى رأيك يا عم

وهو دائما كذلك ، فهو يعرف مسبقا أن الشيخ سعفان على صواب فـي كل ما تقول ، وتجربته الطويلة فى خدمة هاته التربة ، لا تعنى شيئا قـدام تجربة الشيخ .. لذلك ينفذ كل ما يقولـه الشيخ دون تململ أو ترمرم .. وهى فى الحقيقة ليست أمرا ، وليست قرارا ، لا يقبل الجدال ، وربما هى كذلك من سنين . فأخذت شكل اقتراح ، ينفـذه وهو مرتاح البال للثقة التى يمنحه اياها الشيخ سعفان .. ونادر جدا ان يحصل غيره على ما يحصل عليـه هـو .. بالرغم من نعتهم له « بالقواد » و « القفـاف » تقربا للشيخ ـ ألم تش « بالجيلانى » ، بدعوى أنه بقى اكثر من نصف ساعة داخل المرحاض (مع الملاحظة أنه ليس مرحاضا ، بل سميته كذلك بعد أن فشلت فى ايجاد التسمية المناسبة ، اذ هو عبارة عن حفرة بين حجرتين ..) ألم تتسبب فى طرد « الهاشمى » ، بدعوى أنه كاد أن يكلف الشيخ سعفان خسارة فادحة ، ان هو أشعل النار لطبخ الشاى بالقرب من اكوام التبن ..

لن يحز فى نفسه هذا . ولا مغادرته هاتـه الارض التى عمل بها طويلا . بل سيعود لخدمتها فـى موسم قادم . بل سيمر بدكان الحاج ، بعد صـلاة العشاء ، ويتسلم وصية الشيخ لاحد معارفه بتلك البقاع التى يقصدها غدا ..

فيما قبل ، أى منذ سنين ، وعندما يهدنى التعب ، وأنا أقطع الاميـال فى اتجاه « الكتاب » اشتاق الى يوم كهذا ، اغرق فيه . وأبقـى انظر الـى السحب تتجمع ، فتلمس قمم الجبال الممتدة فى الطرف الآخر . تصعقنـى فكرة الانقطاع عن الدراسـة ، والاتجاه نحو تلـك الجبال ، أصعد قمتهـا ، وأختفى خلفها .. وكانـت نفس تلك السحب تتكاثف ، وتشكـل محتشدا دخانيا يبعث فـي احساسا بالخوف ، فاركض هاربا ..

وتعـود فتشغلنى نفس الفكـرة ، كلما شاهدت نسـاء حومتنا ورجالهـا يتهامسون عند عتبات البيوت ، وفى المقاهى ، بأن ولد الحاج الطاهر العدل سيعود اليوم . بعد غيبة طويلة ، وبعد ان انقطعت أخباره ، فلم يذكرهم ولو برسالة تبعد عنهم هم سنين طويلة ، وعذاب فراق قد طال . فانقطع الامل . ثم عاد بمجرد ان تلقفـوا بعض الشائعـات . فعادت الضحكـة ترتسم عـلى الوجوه . وعاد الحاج الطاهر العدل الى سابق عادته يرش الماء أمام دكانـه ويسقى شجيرات النعناع كـل مساء ، يعيد غرسها عند كل صائفـة ، فى محبس كبير لا يسهى ابدا عن اخراجه امام الدكان ...

وها هم يهرعون فى اتجاه المحطة ، يستقلون العربات ، تجرهـا البهائم يركبها الاطفال ، والحاج الطاهر العدل يتقـدم الموكـب ، يركب بغلـه ، والنساء يسرن من الخلف ، يتهامسن أو يزغردن ..

عند جدار قديم ، متآكل ، جعدته السنون ، فخطت فوقه أشكالا متشابكة ورسوما متنوعة ، زادتها وحشـة بعض الكلمـات والاسمـاء المتداخلـة ، والارقام ، كتبت بالسواد . وقد تكون تعنى شيئا لدى أصحابها .. حطت القافلة عند الجدار ، تستظل بظلـه . شدت البهائم الى ناحية غير بعيدة ، واوقدت النار فى الكوانين ، وفاحت رائحـة الشاى وقد اختلطت برائحـة البعرور .. وزغرد البراد ، فصاحت الحاجة فاطمة : زغردن يا نساء ،، البراد يبشرنا بمقدم ولد الحاج ..

وكلما طال الانتظار اكثر ، كلما زادت الارجـل فى الغـوص ، والتغلغـل وسط التراب الناعم ، فتمنحهم رطوبته مزيدا مـن الصبر ، والانشـداد . وتلوح بسمة على وجه الحاج الطاهر العدل المنزوى غير بعيد عنهم ..

تخفت النار ، ويكسوها الرماد . وتأخذ الشمس فـى الانحدار والسقوط لتنام وسط الحقول الممتدة ..

عند المساء ، تعود القافلـة ، والحاج الطاهر العدل يركب بغله مطأطـأ الـراس ، يسيـر من الخلـف ..

لم تمض مدة طويلـة ، وعلمنـا أن الحاج الطاهـر العدل قد مات . مات كمدا . فقد طال الفراق ..

وكتب احدهم يسجل الواقعة : سقطت الشمس وسط الحقول المترامية وقد خرجت عن مدارها ، فحامت حولها الغربان ..

هذه المرة ، لم تزغـرد النساء لمقدمه ، ولـم تفـح رائحـة الشاى . ولـم يجد من يستقبله عند الجدار فى مدخل القريـة ..

فى بادئ الامر نادينـاه سعفان ولد الحاج الطاهر العدل ..

انضم للمجالس ، وحدثهم عن مغامراته ، وابتاع منهم الارض والبهائم .. أصبحنا نناديه « الشيخ سعفان » ..

★ ★ ★

بعد السؤال ، علمت ان القطار لن يكون هنا الا بعد ساعة ، وربما اكثـر وربما أقل ، فموعده غير محـــدد ..

والقرية ساكنة ، هادئة ، يلفها ضباب شفاف ينبـئ بالقيـظ . فيمـا الشمس تختبئ خلف الجبال ، ترسل بأشعتها من تحت السحب ، سهـام

تدق الافق ، وتعلن الفتح المبين ابقى اتتبع ما يحدث بين حمارين عند الجدار المتآكل ، يكشران حينا ، ويركضان حينا آخر . ومجموعة من الطيور ترفرف ، ثم تحط على الاسلاك الكهربائية ، أو تحلق فوق البناءات المتناثرة ، وفوق السكك الحديدية المتشابكة ..

والمقهى كعادتها ، تفتح ذراعيها لروادها من المسافرين ، الذين دفعتهم الضرورة للتوقف بقريتنا فى انتظار التنقل الى ناحية اخرى . أحدهم يغتنم فرصة وجوده بيننا ، فلا يتركها نفلت دون التقاط بعض المناظر ..

ومن سنين ، تعودنا أن نركض خلفهم ، يتجولون بين الازقة ، ووسط الحقول ، يواجهوننا بعدساتهم . وفى أشكال مختلفة ومتنوعة نقف قبالتهم ، متضاحكين ، فرحين ، وفى احيان كثيرة متزاحمين الى حد الخصام . من اجل أن يأخذوا لاحدنا النصيب الاوفر من الصور ، حتى تبقى صورتنا لديهم واضحة ، ومتى زرناهم يذكروننا بسرعة ..

لذلك ، وقبل أن يلوحوا بأيديهم مودعين ، وهم يستقلون القطار ، نترك ما بأيدينا ، ونركض خلفهم ، فنتزاحم فى أخذ عناوينهم ، ونسألهم أسئلة كثيرة . وبالرغم من أن أجوبتهم غالبا ما تكون جد مقتضبة ، فانها تدخل قلوبنا بردا وسلاما ، فتطفىء لحين لهيبه ..

ونحلم بالسفر ..

المقهى شبه فارغة . حاولت أن أتطلع الى الخارج ، فلاحت كتل أشباح تترنح داخل زقاق مواجه للمقهى . تأكدت أن القطار قد تأخر أكثر من اللازم .

وأن امرى سينكشف بالرغم من التكتم الذى جعلته . حتى أكون فى مأمن .. أنا نفسى ، لا ادرى لماذا أحاول ان اكتم ما انا قادم عليه . فى أحيان كثيرة ، أرد ذلك الى خوفى من الاعين والحاسدين ، ثم اقول ، لماذا لا أفعل كما فعل الشيخ سعفان نفسه ، فاجأ الجميع برحيله ، وبفاجئهم بقدومه ، ثم يصعقهم بثروته .. سأسير على هديك يا شيخ سعفان ، مهما كان ، والرحلة التى لا تخلف وراءها لغزا مثيرا وسؤالا مستعصيا ، لا تساوى شيئا ..

حتما ستتقاذفنى اعين كثيرة ، وحتما كذلك ستتلقفنى اعين اخرى كثيرة لحظتها كانت تتقدم نحوى ، وتقف قبالتى ، تراودنى فى ابتياع ورقة يناصيب ..

يوسف سلامة

إلى غزال نافر

شعر : حياة بن الشيخ

القلب إلام تشرده   جفني بالبعد تسهده
وإلام الروح معذبها   عيشي باليأس تنكده
أذواه العشق وهدده   فمتى بالوصل ستنجده
من سهم العين غدا أرقا   بالباب الموت يراصده
بفؤادي الشوق توقده   وبخدي الوجد تورده
بعيون حبي مفتضح   بجفون حظي أسوده
رباه الدهر ضني حالي   وشجاني القلب تمرده
أحلام الوصل تطارده   فمتى بالانس ستسعده
ولهيب الهجر كوى كبدي   فعسى بالقرب تبرده
أمسى مفتونك ضالا ، ابعث نور البسمة يرشده
رحماك فهل أفنى ظمأ ؟   والماء أمامي مورده
أهوى من قاتلني صدا   أهوى من أردتني يده
حتى ان مت فمن قبري   ستردد روحي : أعبده

من مؤلفات الاستاذ **البشير بن سلامة**

- **قضايا**
- **الشخصية التونسية**

رسالة الدّوبيت

بقلم: محمد العيّاشي

(*) - 2 -

النمـوذج الثـاني :

مـن علـم أعطـاف القـدود الميـلا   من صيـر قلبـى رهـن هـم وبـلا

وتقطيعـه :

مـن علـ	ـلـم أعطـا	ف القدود الـ	ـمـيـلا
– –	ں ں – –	– ں – –	ں ں –
لاتـن	فعـلاتـن	فـاعـلاتـن	فعـلـن
مـن صيـ	ـيـر قلبـى	رهـن هـم	وبـلا
–	ں ں – –	– ں – –	ں ں –
فعـلـن	فـعـلاتـن	فـاعـلاتـن	فـعـلا

وهو من الصنف الذى يسمى العروضيون جزأه الثانى (متفاعيلن ں ں – – –) وواضح أن تقسيم العروضيين غالط لأنهم يضمون الى الجـزء الثـانى الذى هو (فعـلاتـن) مقطعـا لا ينتسب اليه وهو (فـا) التى تنتمى الى الجـزء الثالث (فـاعـلاتـن) .

فليس الاختلاف بين النموذجين إذن فى الجزء الثانى ولكن فى الجزء الثالث الذى كان فى النمـوذج الاول (فعـلاتـن) وأصبـح فى النمـوذج الثـانى (فاعلاتن) . وهو تحول معروف آتى عن طريق الزحاف بتحويل (فعلاتن) الى (فاعلاتن) كما بينا ذلك فى « رسالة الأصل والتحول » التى صدرت فى عدد سابق من مجلـة « الفكـر » وفى كتابنـا « الكميات اللفظيـة والكميات الايقاعية فى الشعر » لا كما زعم الخليل بلا حجة ولا برهان .

(*) تابع لما نشر فى مجلة « الفكر » س 26 ، ع 6 ، مارس 1981 .

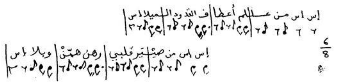
وإذن فان هذا النموذج الطارىء لم يأتنا بشيء جديد يخالف المبادىء التى أقرها القدماء فى معالجة إيقاع الرمل لأن التحول الحاصل به ليس بشيء سوى تسهيل الاهتضام الذى شرحنا طبيعته باسهاب فى كتابنا الذى أشرنا اليـه منذ قليل . وهو التحول الذى يحدث بتعويض المقصورين (ں ں) بهـاضم ومهضوم (ـ ں) وباشارة أدق :



فتصبح الدورة به :



والبيت :



النمـوذج الثـالث :

ونعتبر فيه البيت الأول من هذا الدوبيت :

الصبـر عليـك سـتـــره منهتـــك   يـا مـن بحبـــال وده أمـتـســك
هـذا قلبــى أعـــز مـــا أمتلـــك   عـذبـــه فـمـــا عليـك منـه درك

وهذا تقطيعه :

إس إس الصبـ | ـر عليك ستـ | ـر هو منـ | ـهتكـواس
– – | ں ں – ں – ں – – | ں ں – –
إس إس ـلا تن | فعلات فـ | ـاعلاتن | فعلا إس

إس إس يا من | بحبال و | د د هي أمـ | ـتسكو إس
ں ں – – | ں ں – ں – ں – – | ں ں –
فعلاتن | فعلات فـ | ـاعلاتن | فعلا إس

وهو من الصنف الذى يسمى العروضيون جزأه الثانى (متفاعلن ں ں – ں –)
وهنا نصل من الدوبيت الى نقطة بالغة الدقة لبروز ظاهرة فيها لم نر مثلها
من قبل فى إيقاع الشعر العربى وهى ظاهرة السنكوب : La Syncope
ولنتعرف على حقيقة هذه الظاهرة نحتاج الى أن نقارن بين الدورتين الثانية
والثالثة من النموذج الأول (الأصل) (د بخديك متى أقـ) من جهة وبين
الدورتين الثانية والثالثة من النموذج الثالث (التحول) (ر عليك سترهو منـ)
من جهة أخرى .

الأصل	د بخـد	د يـ	ـك	متى أقـ
	ں ں –	–	ں	ں – –
	فعلا	تن	فـ	ـعلاتن
التحول	ر عليـ	ـك سـ	ـتـ	ـر هو منـ
	ں ں –	ں	–	ں – –
	فعلا	فـ	تن	علاتن

نلاحظ :

١) أن قسما من الدورة الاولى وهو (فعلا) من النموذج الثانى (التحول)
يتفق مع نظيره (فعلا) من النموذج الأول (الأصل) فى كمياته (أربعة
أوقات) وكيفياته أى نظامه (مقصوران وممدود) | ں ں – |

2) أن قسما من الدورة الثانية وهو (علاتن) من النموذج الثانى (التحول) يتفق مع نظيره (عــلاتــن) من النموذج الأول (الأصل) فى كمياته (خمسة وأقات) وفى كيفياته أى نظامه (مقصــور وممـــدودان) | ں – – |

3) أن الاختلاف بين الصنفين يمس الدورتين معــا فى موضــع المـــدود الثانى (تــن) من الدورة الاولى من النموذج الأصل وفى موضــع المقصــور الأول (فــ) من الدورة الثانية منه . وإذن فــان المقطعين المعنيتين ينتميــان الى دورتين مختلفتين .

4) أن هذا التحول يتمثل فى تقديم مقطع مقصــور (فــ) حقــه التــأخير وتأخير مقطع ممدود (تــن) حقه التقديم فى عملية تبادل Permutation

5) أن المقطع المقصور (فــ) المتحول من مكانه يحتل فى الأصــل الــوقت الاول (فــ) من الدورة الثانية منه . واذن فــان المقطعين المعنييــن ينتميــان فى الأصل الوقتين الأخيرين من الدورة الأولى .

	ممـــ	ـــدود	مقصــور
الأصــل	وقــــ	ـــتــان	وقـــت
	تـــ	ـــن	فـــ
التحـول	فـــ	تـــ	ـــن

6) أن المقصور المتحول (فــ) لما تقدم على المـــدود (تــن) استأثر بأول وقتيه ولم يترك له إلا وقتا واحدا لا يتسع له .

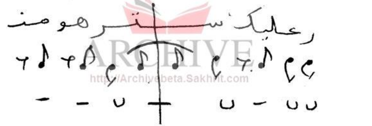
7) أن الممدود المتحول (تــن) لما ضاق عنه الوقت المتبقى لــه من وقتيــه الأصليين توسع على حساب الدورة الموالــيــة باستغــراق الــوقت الأول منها لشغوره بعد خلوه من (فــ) المتحولة . ونسمى هذه الظاهرة التنازع .

8) أن الكميات الزمنية بقيت سالمة لم تنخرم بهذا التنازع (ثلاثة أوقات فى الأصل وثلاثة أوقات فى التحول) .

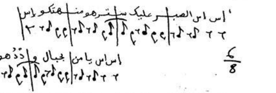
9) أن نظام المقاطع هو ما تعرض للانخرام .

10) أن المقطع الممدود (تــن) باستغراقه وقتين أحدهما فى الدورة الأولى والآخر فى الدورة الثانية قد سبب التحام الدورتين بما يلغى الحد الذى يكون عادة بين الدورات المنفصلة عن بعضها .

11) أن هذا الالتحام المتجسم فى انزلاق قسم من المقطع الممدود الثقيل (تــن) من منطقة الثقل التى ينتهى اليها فى آخر الدورة الأولى الى منطقة الخفة فى بداية الدورة الموالية لشغورها هو ما يسمى فى عرف الموسيقيين السنكوب La Syncope ويرمز اليه بالقوس  التى تربط بين الدورتين إشارة الى ذلك الالتحام . وترقم الدورتان هكذا :



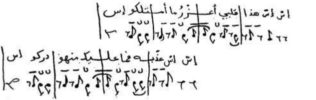
ويرقم البيت كله هكذا :



12) أن هذا التنازع وإن اختل به نظام المقاطع اللفظية لا ينال من الكيفيات الايقاعية ولا يزيدها إلا روعة وحسنا ؛ ولا سبيل الى إدراك ذلك إلا بالسمع . فان ذلك اذا حصل استبان للحس استتباب النظام فى الحركة الايقاعية بما يضمن لها التوازن والاستمرار وكأن شيئا لم يكن .

النمـوذج الـرابـع :

هـذا قلبـي أعـز ما أمتلك عـذبـه فمـا عليك منه درك
وهذا تقطيعه :



وهو من الصنف الذى يسمى العروضيون جزأه الثانى (مستفعلن ــ ــ ں ــ) وليتهم قالوا (متفاعلن) بسكون التاء ليشعر الطلاب أن هذا الصنف الرابع لم يأت إلا من قبل الزحاف (تسهيل الجمع) الذى وقع فى منطقة الخفة (فعـ ں ں) من الدورة الثانية فتحولت الى (فعـ ــ) بسكون العين . وهو ما أصاب دورة الشطر الاول من النموذج (قلـ) (ــ) فى (قلبى أعـ) وسلمت منه دورة الشطر الثانى (به فـ) (ں ں)

وجدير بالملاحظة أن هذا التسهيل هو نفسه الذى يعترى دورة الختم (فعلن ں ں ــ) لاحداث ضرب ثان يكون (فعلن) . ولكنه لا يعترى الدورة الثانية الا اذا دخل عليها التنازع فيعتريها جوازا . وإنما اشترط فى تلك الدورة دخول التنازع عليها زيادة على تسهيل الجمع لأنه هو ما يضمن ألا يتوالى فى الكلام أكثر من أربعة ممدودة وهو أقصى حد ممكن لتتابع المقاطع الممدودة فى الشعر العربى كالذى نجده فى الخفيف :

فعلاتن متفعـ | لن مفعولن
ں | ــ ــ ــ ــ

وأما اذا خلت تلك الدورة من التنازع فان تسهيل الجمع يحدث فى الكلام تتابع خمسة ممدودة بما يتنافى وطبيعة الشعر والايقاع عند العرب

(فعـ)	لاتن فعلاتن	فعلن مفعولا (تن)
	ــ ــ ــ ــ ــ	ں ں ــ ــ ں ں ــ
	فعلاتن فعلا	ت

لذلك رفضنا التحول (مفعولات – – – ں) الذى اقترحه شارل بلا كما بينا ذلك سابقا .

تلوين الختم فى الدوبيت : (أو أنواع الأضرب)

وللدوبيت ثلاثة أختام خلافا لما رآه العروضيون وشارل بلا :

ختم سالم مذيل وختمان أعرجان خفيف وثقيل :

1) الختم السالم المذيل : وهو كالعروض والضرب من هذين البيتين :

الطرة والجبين صبح (وظلام) والريقة والوجنة ورد (ومدام)

والحاجب والمقلة قوس (وسهام) هذا صنم وفتنة للـ (إسلام)

وهو ما تلاحق فى آخره ساكنان ينطق بثانيهما العنصر الساكت

(ومدا ام)

ں ں –

فعلاتن

وقد تسهل فيه منطقة الخفة (ں ں) بالجمع (–) كما فى ختم الشطر الرابع (إسلا ام – –)

2) الختم **الأعرج** الخفيف : وهو كالذى فى العروض والضرب من **هذا البيت:**

من علم أعطاف القدود الـ (ـميلا) من صير قلبى رهن هم (وبلا)

(وبلا إش)

ں ں – ٣

فعلا إس

وهو ما سلم فيه الخفيفان (فعـ ں ں) من تسهيل الجمع وسكت فيه العنصر الأخير .

3) الختم الاعرج الثقيل : وهو كالذى فى العروض والضرب من هذا البيت :

هبت سحر فهيجت و(سواسى) نشوى خطرت عليلة الانـ(ـفاس)

(واسى إش)
ـ ـ ـ ـ ـ
فعلن إش

وهو ما تعرض خفيفاه (فـ ن ن) الى تسهيل الجمع وسكت فيه العنصر الأخير .

ذلك إيقاع الدوبيت كما وجدته فى رباعيات عماد الدين الاصفهانى أرجعته الى حقيقته كما يحسها الشعراء وبينت واقعه كما ينبغى أن يتبين للبصر وذلك بعد أن أزحت عنه أنقاض العصور وغبار الأوهام . ولكن قد يجدى أن نخرج من هذه الدراسة بالنتائج الآتية :

1) أن لفظة الدوبيت لما كانت لا تدل على معنى الايقاع ولكن على شكل التأليف الشعرى فان الايقاع الذى هو موضوع بحثنا يبقى نكرة لا اسم له .

2) أن هذا الايقاع لما تبين أنه إيقاع الرمل بعينه أدخلت عليه تحولات أخرى لا تخرج به عن صبغته ولا تحيد به عن طبيعته ، ولما كان مختصا بلون الدوبيت الشعرى فان الاسم الذى يلائمه هو (رمل الدوبيت) .

3) أن هذا الايقاع لما كان رملا فهو إيقاع عربى وليس بايقاع فارسى كما يزعم العروضيون والنقاد ومؤرخو الأدب جهلا بحقيقته . وإنما استفاده الفرس من الشعر العربى بعد طول احتكاكهم باللغة العربية وآدابها خلال القرون الأولى من ظهور الاسلام .

4) أن الفرس لما استعصى عليهم استعمال الرمل كما هو فى صيغته العربية الأصيلة لاختلاف اللغة الفارسية عن اللغة العربية فى الجنس والطبيعة

أقحموا فيه ما يهيئه لاحتضان لغتهم وهو زيادة تلك الـدورة على ما هى عليه فى كل شطر منه ليتماشى مع تركيب الجملة الفارسية خلافا للجملة العـربية التى غالبا ما تبدأ بفعل حتى كانت جميع إيقاعاتهم مصـدرة بحـركة الفعـل المـاضى (ںں ـ)

5) ولكن يجب أن نعترف بحقيقة وهى أنه قد وقع تطعيم الرمل فى الدوبيت بعنصر أجنبى عنه فارسى ولا شك وهو ما يتجسم فى ظاهرة السنكوب التى تظهر لأول مرة فى تاريخ الشعر العربى الطويل .

جدول عام لشطر الدوبيت :



محمد العياشى
سـوسة

أحبك ... والظلمة صافية

قصة : بنت البحر

لماذا تركتها تذهب ، وهى عزائى الوحيد ؟ . لماذا تركتها وبقيت وحيدة فى هذا البيت البعيد ؟ وكل شىء حولى خاو ، فارغ ، بارد ؟ ... لماذا تركتها تذهب والبسمة ضاعت من الشفاه ؟ وهى بسمة هذا البيت ؟!...

بقيت ممتدة ساعات على الفراش ... يداى ملقاتان على الجانبين ، لا تقدران على التحرك ... شىء مخيف من العجز يحوم حولى .. انظر الى يدى البيضاوين الشاحبتين .. ترتفع نظراتى عن اليدين الضعيفتين ... ترتفعان قليلا ... وتنزل أجفانى متعبة ، غير قادرة على التحرك والحياة ...

أغمض عينى ... أتمنى النوم يغرقنى فى ليل نسيان منقذ ، ليتنى أنام !.. رأسى ثقيل !. يحمل هموم الارض والسماء ... ابر تخزه من كل ناحية ... ابر موجعة .. موجعة .. تنغرز فى اللحم .. تثقب الجمجمة ..

أرفع يدى الواهنة أرفع الغطاء الى وجهى ، أسد بعضا من نور يتسلل من فصاص النافذة .. تبقى يدى فوق وجهى عاجزة .. ضعيفة .. والظلام فى عينى يزداد اسودادا ... ورأسى يسكنــه ظلام متوحش .. موحش .. تختلط فيــه خيوط ودوائر وأشكال داكنة ، شرسة ، متداخلة .. تغتسل فى دم أحمر .. أسود .. همجى ..

قضيت الليل ، والابر فى رأسى تنغرز أكثر فى برك الدم والظلام .. تنغرز بقسوة .. تعذبنى .. تشل يدى .. تغرقنى فى ضعف مخيف .. لا تترك لى القدرة الا على أنين ضعيف متقطع ...

كنت أشعر بالموت جد قريب ... يدب الى خفيفا ، غامضا ، ساكنا ... وأنا ، بلا قدرة ، بلا صوت ... سهلة فى يد شبح مخيف ...

أحسست الدمع يتدافع الى مقلتى ...

دعوت بصوتى المفقود يدا تحمينى من أشباح الظلام .. تربت على هذا الجسد الذابل الذاوى ... بلا قدرة .. بلا قوة .. تمنيت يدا على كتفى ، على صدرى . توقظ فى الحياة ، تزرع بذرة الامل ...

كان الجسر الآخر لا يتحرك .. بعيدا ... كنت أشعر ان ظهرا يواجهنى ، وأن الدنيا فارغة .. بئر جافة موحشة ، الليل كان طويلا مثل ألمى ..

ثم ابتعد الطرق فى رأسى ، وسكنت الابر بعد طول جهاد .. وانحدرت فى هوة من الظلام الصافى ...

وحين أحسست يدا تمتد الى ثيابى تفتحها عرفت ان الرحمة امتدت الى جبينى المنهك، وأنى نمت وهربت من قبضة الالم ، والسماء بدأت تمطر وشفى العطاشى ، والارض بدأت تروى وتحمد ... وابتسامة فى أعماقى تفتح لى باب الامل ..

سيربت على هذا الخط الشاحب فيجد الدمع ما زال يبلله ... سيضع رأسى على صدره كما كان يفعل فى ذاك الزمان سيرويني حنانـا ، بلسما وشفاء

تفتحت نفسى تستجدى المطر والرواء .. ولكن اليد التى تفك الازرار لم تربت على خدى لتمسح بقايا الدموع .. لم تلمس قلبى الخافق ببطء وضعف على باب الموت .. كانت يد تفتح الازرار .. كانت حاجة يريدها رجل ، وكانت هناك امرأة على نفس السرير ...

عاد الظهر يواجهنى ، وعادت الدنيا بئرا جافة لا تعرف المطر ولا الرواء ... والابر أصبحت تنغرز فى كلمكان من جسدى قاسية موجعة واخزة ... والظلام المختر بالدم والاشباح والخطوط المتداخلة البشعة أصبح يملأ رأسى .. يكسر جمجمتى ... فقد انقطع الانين .. غاص سكينا فى الاعماق .. ليولد ألم جديد يحفر القلب والعقل والجسد يحفر الارض والسماء ، وكل الدنى ..

من وقتها لم أنم ... بقيت مفتوحة العينين أرقب الموت يجول حولى وأنا وحيدة .. وحيـدة ..

النهار طالع والشمس يمتد نورها حتى فراشى رغم النافذة المغلقة ... اغنية حزينة يرتفع صداها الى من الشارع .. والعينان مفتوحتان .. دموع تملؤها ، تغطى نور الشمس المتسلل . واللحن يصعد أنفاسه الحزينة الى مسمعى ...

رأسي تملؤه الهموم .. يثقله الالم ... لا قدرة له على النسيان أو الغرق فى بحر النوم ...

دفعت جسدى الواهن خارج الفراش .. مشيت خطى فى الغرفة ... لعبها تزين خزانتها .. بقيت منظمة ، مرتبة ، لم تعبث بها كما كان عهدى بها وهى تلهو وتلعب .. لو كانت هنا !... قبل أن تنام ، وصوتها مثقل بالنوم لكانت تناديني : ـ « أحبك ماما ! »

لماذا تركتها تذهب ؟! وهى تملأ لى كأس الماء ، وتسقينى بيديها الصغيرتين وتحمل لى قارورة ماء الزهر حين ترانى أتألم ...

لماذا تركتها تذهب ، فالبيت فراغ ؟!.. والمطارق تطرق رأسى ، وطوق من حديد يقيد جبينى .. يضغط بعنف .. يوصل الابر الواخزة الى المخ ..

يقابلنى وجهى فى المرآة ، شديد الصفرة .. شديد الذبول .. ينوح صوت الاغنية الحزين .

أنا لما حبيتك خطـر علـى بـالى

الى جرا لى والى راح يجرالى ...

عيناى فى المرآة تملؤهما الدموع ... يغرقان فى بحر من اليأس ... اعياء غريب يسقط على ... أعجز فجأة ... تتكاثر الدوائر السوداء والحمراء فى عينـى .. تمـلا الغرفـة ... دوامـة دمويـة تعصـف بـى ... أستنـد الى الحائط ... تسقط أجفانى ... تسقط الشمس فى عالم آخر ..

احاول أن أخطو الى السرير ... تظلم عيناى أكثر ... أخاف الشبح وأنا وحيـدة .. أخافه .. الحائط البـارد أتلمسـه .. تنثنـى رجـلاى .. أسمـع صوت جسدى يسقط ...

تختلط صورتها بدوائر الظلام المتداخلة ... باللحن الحزين ... بصورتها البعيد البعيد : « أحبك مامـا ! » .

أشباح مخيفة تتقدم نحوى ... أسمعها ..! مخيفة ... تقترب ... تتهاوى دوائر الظلام ... تنعدم ... تبتعد الاصوات ... تضيع ... ظلمة صافية ... سكون عميق ... ولا شيء .! لا شيء .! لا شيء .!

غير هاجس فى نفسى يخاطبها من بعيد أبعادى كما لو كانت أمامى ماثلة : « أحبك .. والظلمة صافية » .

بنـت البحـر

كاف ونون ..

شعر : علاله القنوني

كــافٌ ونــونْ
زرعَ الــزّمــانْ
فنمــا السّــؤالْ
وَرْدًا وَشَوْكــًا فِي متــاهــات الخيــالْ
ووَجَـدْتُنِي عَجَبــًا أنا الحرفُ الوحيدْ !
لمّا التقينا في الضّياعِ على الجليدْ
وَسَطَ الــزّحامْ
كــافــًا بِنــونْ
ظمــأ بماءٍ فِي التحامْ !!

* * *

كــافٌ ونــونْ
وتناثرتْ منّا الجراحُ .. تــكاثرتْ فينا العيــونْ
وتغلْغلتْ فينا الظنــونْ
وسقَى الغرامُ بمائِهِ نارَ الظّنُــونْ
مدّي يديكِ لتقطفي تفاحة شهدتْ ولوجَ الليلِ أعماقَ الصباحْ
وتوسّدي بينَ الأنين وذا الأنيــنْ
نارًا تُذيبُ أذى السنيــنْ !!

* * *

كافٌ ونونْ
دوامةٌ دوماً تدورْ
لا تسألي من نحنُ فيها ؟ ما نريدْ ؟
غَوْراً نغورْ
حتى نُشارِفَ هولها فتشارفُ الاسوار فينا والقيودْ
ونرى الرّحيلَ على الرّحيلْ
هلا نثورْ ؟ !
الشمسُ تجري في خضوعْ
والبحرُ في مدّ وجزرٍ أو صعودٍ أوْ نزلْ
عَبْدٌ أسيرْ
هلا نتوبْ ؟ !
لا توبةٌ منْ ملكنا هلْ تابَ قبلكَ كائنٌ حتى نتوبْ ؟ !
الملك كل الملك للصمتِ الكبيرْ
دوّامةٌ دارتْ بنا
بالقطفِ ننسى أسرَنا
فلتزرعي في كلّ دربٍ ضَمّنا
تفاحةً حتى اذا كان العبورْ
في جلوةِ السرِ الخطيرْ
نشتمُ أنفاس العبيرْ

* * *

كافٌ ونونْ
تلك الحياة تَبَرّجَتْ بينَ المفاتنِ والحنينْ
فبأي آلاءِ الحياة تكذبين ؟ !

قصيدة حب إلى «الفكر»

شعر : الغربي المسلمى

مدين أنت ـ يا قلمى
لمن تهواك ... من تعطيك من أهدابها لحنا وأشعارا
لمن تملى عليك الوحى أنهارا
لمن ترمى على شباكنا الفانى
نجيمات وأقمارا
مدين أنت ـ يا قلمى
لمن جعلت ضفائر شعرها الهانى
فراشات وأطيارا
تحوم فى قوافينا
وتبنى بين أحرفها لفصل الحب أوكارا
مدين أنت ، طول العمر ، يا قلمى
لهمستها ... لبسمتها ... للفتتها
لمن أهدت قصائدنا
من التحنان أزهارا
لمن طرحت ، بقبلتها
على ديواننا شالا وزنارا
لتكتب يا صديق العمر يا قلمى
لتكتب عن حبيبتنا ،

عن « الفكر » التى ظلت تناولنا
معا ، من حبها ، حبا وأشواقا
وتطعمنا مع الليلات أسمارا
لتكتب عن حبيبتنا ولا تبخل ... ولا تكسل
فكم آوتك أياما وآوتنى !؟
لننعم فى جوانحها ... ونسكن قلبها دارا
وأهدت من حناياها شرايينا
لتجعل منك قيثارا
صديق العمر - يا قلمى ...!
حبيبتنا تدارينا
بمأوى عطفها الدافىء
لنعشقها ... ونسكنها فؤادينا
لنحملها ...
على أرجوحة الأحلام والانغام مشوارا
لنجعل عمرها عيدا
ونلبسها من الأشعار أسوارا

الغربى المسلمى

أصداء الفكر

● بين الفكر والسياسة :

تحت هذا العنوان نشرت جريدة « الصباح » فى عددها الصادر يوم الثلاثاء 14 أفريل بقلم السيد محمد العيارى ما يلى :

هل للفكر صلة بالسياسة ؟ سؤال طرحته على نفسى فى مناسبات عدة اقترنت باحداث محلية أو عالمية ، وفى كل مرة كنت أخرج بنتيجة واحدة هى ان لا مجال لفصل الفكر عن السياسة عن شؤون الحياة عامة مهما تكن معقدة شائكة ، فالفكر الانسانى هو الساحة التى تطرح فى رحابها كل المعضلات بحثا عن الحلول ، والفكر الانسانى هو الذى قاد وما يزال كل ممارسة انسانية سواء كان شأنها صغيرا أو كبيرا ، وما يراه الناس من ألوان الممارسات ، انما هو ترجمة عن درجة النضج العقلى لدى الانسان ، ويبقى الفارق بين فكر وفكر قائما على درجة التفاوت فى العمق والبعد والغايات وقدرته على هتك حجب المستقبل لرصد الذى يأتى ولا يأتى ، ومن هناك عرفت الانسانية عبر تاريخها ألوانا من الفكر تنوعت وتباينت ، عرفت الفكر الرائد والفكر القائد والفكر المحافظ المتوارى خلف القضبان والاضرحة وهى كلها تسميات استمدها الناس من الاثار التى خلدها بعض المفكرين فى هذا العالم ، والمتأمل للاحداث الكونية وما فيهْ من اثر للفكر يتفاوت عمقا واتساعا يدرك بجلاء ان الفكر اذا تعطل او انحدر كانت الكارثة على الامم والشعوب ، اذا احتجب الفكر النير انتفى الوجود ، أو كان وجودا تافها ذليلا ، وهذا ما جعل الامم فى عصرنا هذا لا تقدر بثرواتها وخاماتها ونفطها وانما تقدر بمفكريها وطاقات ابداعها فى شتى مجالات الحياة ، وذلك يرجع بداهة الى ان الفكر هو مصدر الخلق والابداع ، ومصدر التطور الدائم ، ان الفكر هو الذى يقفز فوق العقبات ويحول المستحيل الى ممكن ويجعل أمة تتفوق على أمة وشعبا يفوز بقصب السبق على شعب آخر وجماعة تهتدى الى أقوم السبل فى حين تتردى حماعات أخرى فى متاهات الضياع والفراغ .

هذه الخواطر أوحى بها الى الخطاب الذى ألقاه رائد الفكر الكبير الاستاذ محمد مزالى بمناسبة العيد الوطنى الخامس والعشرين وخطابه أيضا فى مؤتمر الحزب .

أصغيت الى خطابيه باهتمام بالغ وحاولت ان استوعب معانيه وابعاده فوجدت فيه من بليغ الفكر وصائب الرأى ما جعلنى كما جعل الجماهير الحاشدة تهتف له وتنوه به .

ان الاستاذ محمد مزالى رسم الحد الفاصل ، بين أسلوبين من أساليب العمل السياسى ، أسلوب العقل والحجة أسلوب القوة والتضليل ولقد تمسك فى اصرار وحسم بالمبدأ الاول لانه يؤمن كرجل فكر فى المقام الاول ان أسلوب العقل والبرهان هو طريق الديمقراطية ، وهو اسلم الاساليب فى التعامل مع الناس بينما ينتمى أسلوب القهر والتضليل الى الاكراه والفاشيستية واخضاع الرقاب بلغة السيوف والنظر الشزر ، الاسلوب الاول متحضر يقيم وزنا للجماهير ويضع أقدامه على أرض صلبة ويحتل مكانه فى رحاب القرن العشرين بينما يبقى الاسلوب الثانى قائما على التهويش والتعمية والبدائية لانه منفصل عن العصر معلق فى الفراغ ، ووضعه على هذا النحو يقيم بينه وبين جماهير الشعب سدا منيعا ويغلق ملف الحوار بينه وبين الاجيال ، مبدأ الديمقراطية يقيم العلاقة مع الجماهير على أساس من المحبة والاحترام والاقناع والاقتناع لانه يعتبر الجماهير مواطنين لا رعايا فى حين ينعزل عشاق الفاشيستية عن الجماهير لانها عندهم قطعان من الرعايا والعبيد تستهويها الوعود المعسولة وتخيفها القبضات المعقودة ، ولعل اقتناع الاستاذ مزالى بمبدأ الديمقراطية — واول آثاره كتاب عن الديمقراطية — نابع من الفكر الفلسفى الذى استوعبه حتى تجاوز المدى الضيق الى العالم الارحب والزمن اللامنتهى ، انه مقتنع ان العيش فى ضمائر الناس حياة ثانية ومتعة لا تعدلها متعة وهو يعلم ان سعادة المرء ليست فى الترف والجاه ومظاهر القوة والبأس ولكنها فى تضميد جراحات المعذبين ورفع الكابوس عنهم ، وهو مبدأ يتنافى مع أسلوب الغطرسة والتهديد والوعيد الذى يجعل المناخ السياسى مشحونا بالعداء والتوثب ويقطع وشائج الصلة الروحية بين الحاكم والمحكوم .

أسلوب الغطرسة عمل تخريبى لا يقوم به الا قيصرو النظر ومن غلبتهم ابهة الملك وشهوات الحكم الملذوذ ، نعم هو عمل تخريبى ينساق اليه بعض الناس ليدمروا أنفسهم بأنفسهم لانهم مشغولون عن الجماهير بسكرة الحكم الذى صار عندهم ضربا من الهوس والجنون فى سبيله تعلن المعارك الحامية

وتستخدم أساليب المد والجزر وتغيب كل القوانين المتعارفة فى أبجديات السياسة فلا تداول ولا تناوب ولا ايمان بمصلحة الجميع فوق الجميع وفوق المطامع والاهواء .

ورغم ان هذا الاسلوب خاطىء من أساسه ، فان فداحة الخطأ لا تتجلى لمن يمارسونه الا عندما يصطدمون بالجماهير تدمر وتكتسح ، ومن عجب ان هؤلاء لم يتعظوا بالتاريخ ولا بالاحداث التى تهز عالم اليوم هزا عنيفا ، ولقد جاء خطاب الاستاذ مزالى ليسم الموقف ليعلن لنا القطيعة بين عهدين عهد الاقناع والاقتناع الذى يجب أن يسود وعهد الدم والغوغائية الذى يجب ان يذهب الى الابد .

وليس ذلك بعجب على رجل يملك ثقافة كونية عملاقة وضميرا واعيا يعرف جيدا كيف يتعامل مع الجماهير التواقة الى غد أفضل ، تلك الجماهير التى أقامت الدليل على انها جماهير التخطى والتجاوز لا جماهير الخنوع والذل والقرار والاستقرار .

ان هذا الرجل سيبقى حيا فى ضمير شعبنا وصفحة ناصعة فى تاريخنا ووجها نابها من وجوه العظماء الذين أنجبهم هذا الوطن ، سيظل التاريخ يكبر هذا الرجل وينوه بطبيعته وجهوده التى ما فتىء يبذلها للنهضة بشعبنا والتحاور معه بلغة متحضرة تجعلنا نقر تلك المقولة القويمة التى ضبطت للشعوب مسار فلاحها حينما قالت : « **لا تفلح الشعوب الا اذا تفلسف حكامها او حكم فلاسفتها** » .

● ابن سلامة فى حوار على الأثير :

لما كان الكتاب من أوائل الوسائل القارة لنشر الثقافة وتغذية الافكار ، فان قضية دعمه على مختلف مستويات انجازه منذ التأليف حتى اكشاك البيع تعتبر مدعاة لتخصيص قسط هام من عناية الاوساط الثقافية المسؤولة بتدارس مختلف أوجه هذا القطاع .

واحقاقا للحق فقد أقر منذ زمن قريب وبكل استبشار مجمل الواعين بضرورة الغذاء الذهنى ومدى اهمية القرارات التى توصلت الى اتخاذها وزارة الشؤون الثقافية فى سبيل اعطاء دفع جديد للكتاب التونسى وتمكينه من قدرة الصمود أمام زحف الانتاج الاجنبى على الاسواق العربية وفى هذا الاطار ننقل الى قرائنا مقتطفات من اللقاء الاذاعى الذى أجراه أمس برنامج « يوم سعيد » مع السيد البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية .

« يعد الكتاب التونسي من حيث رواجه على السوق العالمية باهظ الثمن اذا ما قورن بالكتب العربية الاخرى .

وصندوق التعويض يحاول ان يضغط على اسعار المواد الاساسية خاصة ، واعتبر الكتاب في هذه السنة « خبزا ثقافيا » ولهذا وقع الضغط على سعر الورق المخصص للكتاب باعتباره ورقا مدرسيا . وهذا الاجراء يمكن الكتاب من نسبة انخفاض في التكاليف تقدر بـ 16 بالمائة وهذه النسبة تنعكس بطبيعة الحال على سعر البيع الذي ينخفض بدوره بنفس القيمة » .

س : هل يخص هذا الانخفاض سعر الكتاب الثقافي أيضا ؟

ج : ان الكتاب المدرسي لا يشكو من الارتفاع في السعر ، ويخص هذا الاجراء الذي اتخذ سنة 1981 الكتاب الثقافي الذي يصدر ابتداء من غرة مارس .

س : هل يعني هذا ان النسخ الجديدة من الكتب التي سبق نشرها ستختلف عن مثيلاتها في الاسعار في حين انها تحمل نفس المحتوى ؟

ج : ان كل الكتب التي تصدر بعد غرة مارس يعوض لها نسبة التخفيض المذكورة في تكاليف النشر ، اما الانتاج الذي سبق هذا التاريخ فهو يظل على أسعاره القديمة .

وهذه النسبة من التخفيض من شأنها أن تساهم في مضاعفة الانتاج في حين انه يمكن تداركها عن طريق تعديد الطبعات كما ان تسعير الكتب سيتم ضبطها بقانون اتفقنا عليه مع وزارة الاقتصاد الوطني ، من هنا يتعين على الناشر ان يعد ملفا حول انتاجه يقدمه الى وزارة الاقتصاد الوطني عن طريق وزارة الشؤون الثقافية ، وهذا الملف يحتوي على معطيات حول كمية ونوعية الورق المستعمل وشهادة من المطبعة المعنية حول عدد النسخ المنشورة ، بالاضافة الى نسخة من العقد الذي أبرمه الناشر مع المؤلف أو المترجم أو الاطراف الاخرى المتعامل معها ، حتى تحفظ حقوق التأليف ، كما انه يترتب على المنتج ان يضبط سعر البيع على الكتاب حتى لا تقع التباسات تجارية في السوق ، وتخص كل هذه التراتيب المجلات الثقافية أيضا التي ستمتع بدورها بنفس النسبة من التخفيض .

س : هل تضمنت هذه الاجراءات الهامة محور وسائل النقل والترويج التي يحتاجها الكتاب التونسي حتى يؤم الاسواق العالمية ؟

ج : هذه مرحلة أولى خططت لها وزارة الشؤون الثقافية لدعم انتشار الكتاب التونسي ونحن الآن بصدد النظر فى المحاور الهامة الاخرى من بينها قضية النقل والترويج التي سندرسها مع المجلس الاعلى للنشر وخاصة مع اللجنة الاستشارية التي كونتها والتي ستجتمع قريبا مع جملة اللجان الثقافية لمعاينة كل قطاعات الثقافة عن كثب وفى هذا الاتجاه ، سنعمل معا على حل مشكلة الشحن لترويج الكتاب التونسي بالخارج ونتعداها الى مشكلة الاشهار التي خصصنا لها جملة من الاقتراحات لن نكشف عنها الآن حتى ينظر فيها أهل الذكر المختصون فى هذا الميدان .

وما كل هذه الاجراءات الا دعم لرواج الكتاب التونسي فى الاسواق الداخلية والخارجية ، وسعيا لمضاعفة نسخه من خلال الطبعات المتعددة .

س : اعتادت وزارة الشؤون الثقافية ان تقتني عددا هاما من النسخ المعروضة على السوق تشجيعا للمنتجين ، فما هو نوع الكتب التي تدعمها الوزارة ؟

ج : هي مساهمة متواضعة من قبل الوزارة لا تفوق 10 بالمائة من مجموع العرض ، وأما بخصوص الاختيارات فهي تعتمد على تقييم محتويات الكتب ، الا ان الكتب توزع مباشرة على المكتبات العمومية واللجان الثقافية وغيرها من المحلات التي تضع خزائنها على ذمة القراء عامة .

س : وبخصوص الجوائز التشجيعية التي توزعها الوزارة على المنتجين ؟

ج : اليوم تنظم وزارة الشؤون الثقافية حفلا ثقافيا بدار الثقافة ابن خلدون على الساعة السادسة مساء يتم خلاله توزيع الجوائز على مجموعة من الادباء انتخبتهم اللجنة المنبثقة عن الوزارة والعاملة بتوصيات الامر الرئاسي حول تشجيع الانتاج الثقافي .

● **ملتقى الامام المازري بالمنستير :**

انتظم ملتقى الامام المازري بالمنستير في دورته الثالثة من 27 الى 29 مارس 1981 ودار الملتقى حول ثلاثة محاور هي : الفلسفة والطب والتصوف واشرفت على الملتقى وزارة الشؤون الثقافية مباشرة بواسطة اللجنة الثقافية القومية .

هذا وتضمن البرنامج العام للملتقى عدة أنشطة تتوزع على النحو التالي :

معرض مؤلفات ابناء الولاية . ومعرض رسم . ومعرض تصوير شمسي . ونقيشة الامام المازري . ومعرض الكتاب العربي ثم جلسات علمية بحثت فيها المواضيع التالية :

1) المازري الطبيب ، محاضرة الدكتور أحمد بن ميلاد .
2) حول مسألة الفصل بين الدين والفلسفة . محاضرة الاستاذ الحبيب الفقي
3) دور الفلسفة في عصر العلم ، محاضرة الاستاذ عبد الكريم المراق .
4) ازمة الفلسفة في عصر العلم ، محاضرة الاستاذ محجوب بن ميلاد .
5) تصوف ابن سينا ، محاضرة الاستاذ محيي الدين عزوز .

ثم ندوة علمية حول النظرية التوحيدية بين الجسم والنفس في الطب العربي ، باشراف الدكتور الصديق الجدي ، وبمشاركة الدكاترة : خليفة حرز الله ، وعبد الحميد بوزقرو ، وشاكر الميلي .

وفي اليوم الاخير كانت فرصة لالقاء المحاضرات التالية :

1) من اعلام المنستير ، محاضرة الاستاذ عبد الله الزناد .

2) كشف جوانب خفية من رجالات المنستير ، محاضرة الاستاذ محمد الصالح الصيادي .

3) دور الرباطات في الحياة الافريقية ، محاضرة الاستاذ محمد الحبيب الهيلة . ثم مناقشة عامة .

• **ملتقى ابن منظور الافريقي :**

تم بقفصة في دورته السادسة أيام 17 و 18 و 19 أفريل 1981 وهو ملتقى الدراسات اللغوية .

• **ملتقى ابن رشيق القيرواني :**

تم في دورته الرابعة بالقيروان أيام : 24 و 25 و 26 أفريل 1981 وهو مخصص للنقد والادب القديم .

• **ملتقى القلصادي :**

ينعقد بباجة في دورته الثالثة ، وهو مخصص للعلوم الصحيحة وتاريخ العلوم . وسينعقد ايام : 15 و 16 و 17 ماي القادم .

● **أبـو القـاسم محمـد كـرو يحـاضر فـى البحـرين :**

بدعوة من وزارة الاعلام فى دولة البحرين قام الاستاذ أبو القـاسم محمـد كرو بزيـارة للبحرين والقـاء محاضرات بين جمهور الطلبة والادباء وعامـة المثقفين بها .

وقد ألقى محاضرة بالكلية الجامعية عن « أطوار الادب التـونسى الحـديث من منتصف القـرن 19 حتى اليـوم » حضرها جمهور من الطلبـة والطالبات والاسـاتذة .

ثم التقى بنادى أسرة الادباء والكتاب بعـدد من أعضائهـا وطليعـة أدبـاء البحرين حيث دار حوار عميق حول قضايا أدبية ولغوية وعن العـلاقات التى ينبغى دعمها بين أدباء البحرين وتونس .

كما ألقى الاستاذ كرو محاضرته الرئيسية بنادى الخريجين حضرها جمهور من المثقفين والادباء وعدد هام من السيدات وكان فى طليعة الحاضرين السيد عيسى بن راشد آل خليفة وكيل وزارة الاعلام والسيد سفير دولة الكـويت بالبحرين والدكتور الخزاعى مدير ادارة الثقافة والفنون .

ودامت المحاضرة زهاء الساعتين نصا وحوالى الساعة نقاشا وكان موضوعها « ابن خلدون وعرب البحرين » تعرض فيها المحاضر الى كشف خبايا تـاريخية هامة جدا عن العلاقات البشرية والحضارية والدينية بين سكان بلاد البحرين (الخليج العربى حاليا) وبين أقطار المغرب العربى وما قامت به قبائل بنـى هـلال وسليم النازحة أصلا من بلاد البحرين فى القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى من دور ايجابى فى تعريب بلاد المغرب من برقـة الى موريطانيـا بشريا ولغويا ودينيا ودافع المحاضر عن هذه القبائل ضد ما نسبـه لهـا ابن خلدون والمؤرخون المعاصرون من دور تخريبى للحضارة والعمران فى الشمال الافريقى واثبت العكس حيث قامت هذه القبائل بتعمير البلاد المغـربية التى كانت قد استنزفتها الحروب والفتن قبل الاسلام وبعده بشريا واقتصاديا كما كان لهذه القبائل دور عسكرى واسلامى فى صمود المسلمين بالاندلس طوال أربعة قرون وساهمت فى رد الهجومات الصليبية عن سواحل المغرب العربى ومدنه الكبرى واليها يعود الفضل فى ان بلاد المغرب العربى هى اليوم شعبـا عربيا ضمن الامة العربية .

● **توضيـح مـن شقيـق الشـاعر منـور صمـادح :**

وصلتنا رسالة من السيد عبد الرحيم صمادح حول الالتفاتة المشرفة التى أولتها وزارة الشؤون الثقافية للشاعر منور صمادح :

أرى من واجبى احقاقا للحق وباعتبارى شقيق الشاعر منور صمادح ، ولازالة كل التباس ، ان أدلى بالتوضيحات التالية :

منذ باشرت وزارة الشؤون الثقافية مهامها الجديدة ما انفكت تولى اهتماما خاصا بحالة أخي منور المادية والصحية وقد أجريت عدة اتصالات بالمسؤولين بالوزارة أفضت الى النتائج التالية :

1) تخصيص منحة شهرية من الوزارة لأخى منور تفوق الجراية الشهرية التى يتقاضاها من الاذاعة والتلفزة مع المحافظة على هذه الاخيرة .

2) تنسيق العمل بين وزارة الشؤون الثقافية ووزارة الصحة لمزيد العناية بمعالجته .

3) عزم الوزارة وتكليفها احدى دور النشر التونسية لاعادة طبع دواوين منور لفائدته فى شكل مجموعة كاملة لنتاجه وذلك باذن من السيد الوزير نفسه .

هذا والملاحظ ان هذه الاجراءات الاساسية التى هى خلاصة رسالة مطولة أرسلتها الى الوزارة ووجدت صدى ايجابيا مشكورا لديها قد دخلت حيز التنفيذ .

وأغتنم هذه الفرصة لكى اطمئن أحباء منور الكثيرين بأن هذه الاجراءات قد نزلت بردا وسلاما على أخى وعلينا أفراد أسرته الذين نعيش يوميا معه آلامه ومحنته وسيكون لهذه الاجراءات لا محالة انعكاس ايجابى على حالته العامة ، وأهيب من ناحية أخرى بالذين يطنبون فى الكلام عن « اختباله » أو « اغتياله المعنوى » أو « انتحاره » وغيرها من هذه النعوت على أعمدة الصحف أن يكفوا عن ذلك ، استحياء ، وهذا بطلب منه ، خاصة بعد الاجراءات المذكورة آنفا وان يولوا اهتمامهم عوض ذلك الى التعريف بتآليفه الشعرية والنثرية والموسيقية الغزيرة التى أصبح جيل اليوم لا يعرف عنها شيئا وهى أحسن خدمة يؤدونها له ولنتاجه .

شفى الله أخي منور ، وأعاده من جديد الى حضيرة الادب والفن ، وشكرا صادقا لكل الذين يتعاطفون معه ويولونه ما يستحق من عناية .

الامضاء : **عبد الرحيم صمادح**

● **52 ليلـــة :**

هذا عنوان المجموعة القصصية التى أصدرتها أخيرا « منشورات الجديد بتونس » للقصاص حسن نصر وتحتوى المجموعة على اثنتين وخمسين قصة من النوع القصير تحمل عناوين جذابة منها : « هيا نعلب معا يا جدى ،

كم أنا وأنت عبيان ؟ ، حكاية تافهة جدا ، سرقوا معطفى واقوني الى الليل ، من يساوى ومن لا يساوى شيئا ، وغيرها من العناوين الموحية التى تترأس قصصا يمكن أن نسميها « القصة ـ اللمجة » وكم من لمجه أفضل من أكلة دسمة !

نشكر الصديق حسن نصر على النسخة التى وصلتنا منه ونرجو له مزيدا من العمل القصصى الناجح ونرجو لكتابه « 52 ليلة » الرواج والانتشار .

● **بحجم الحب أكون :**

هذا عنوان مجموعة شعرية صدرت فى العدد 12 من مجلة « الأخلاء » **للشاعر أبى وجدان الصادق شرف** وقد افتتحها الشاعر يوسف رزوقه بقراءة مدخلية جاء فيها بالخصوص قوله :

« **... ومتعددة هى التناولات الشعرية فى مجموعة : « بحجم الحب أكون » لأبى وجدان ، لا نستطيع لها عدا . والمتنقل عبر صفحات هذا الوعاء الشعرى، يلحظ مدى تزاحم الصور وتنوع القضايا : كهجرة الادمغة العربية ، والهم الفلسطينى ، وعذابات المساجين ، والمرأة الراحلة فى الزوابع ، والانسان المستلب ، والوطن المتطلع الى زمن الصحو والاخضرار ... »** .

وتحتوى المجموعة على ست وتسعين صفحة ذات اخراج أنيق وكتابة مشكولة واضحة سماوية اللون ترتاح لها العين وتعتبر هذه المجموعة هى الرابعة فى الاصدار والخامسة فى الترتيب حيث تحتل المرتبة الرابعة مجموعة شعرية أخرى تحمل عنوان « هروبا عن الهروب » أعلن الشاعر عن صدورها فى المستقبل القريب .

نشكر الشاعر على النسخة التى أهداها لنا ونرجو له **تواصل هذا العطاء** الشعرى المكثف كما نرجو له النجاح فى محنة نشر دواوينه على نفقته الخاصة والله ولى التوفيق .

● **سيف الله خالد بن الوليد :**

هذا عنوان الكتاب الذى صدرت منه النشرة الثانية أخيرا عن الدار التونسية للنشر من تأليف السيدين : **محمد العروسى المطوى وعبد الكريم** المراق ، والكتاب فى 134 صفحة من القطع الكبير وهو **عبارة عن مسلسل** تلفزى فى ثلاث عشرة حلقة ولكل حلقة عنوان من هذه العناوين : فى الجاهلية ، فى طريق الاسلام ، سيف الله ، سجاح ، فشل الردة ، أين مسيلمة ؟ ، حديقة الموت ، سر الى العراق ، قلنسوة هرمز ، وليمة البطريق ، محكمة ، نهاية بطل .

نشكر الدار التونسية للنشر على النسخة التى جاءتنا هدية منها .

● **الاسلام وايديلوجيات الفكر المعاصر :**

هذا عنوان كتاب على غلافه صورة يد تمتد منها اصبع الشهادة عالية صارخة « **أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله** » ويرتفع اصبع الشهادة على صور عديدة لرموز الايديلوجيا المختلفة .

وقد ألف هذا الكتاب الاستاذ علال الهاشمي الخيارى وأصدرته الدار التونسية للنشر وقد ضم 269 صفحة من القطع الكبير وامتدت صفحاته باعتبار المراجع الى 280 صفحة .

وقد جاءتنا نسخة من الناشر هدية لمكتبة مجلة « الفكر » شكرا للمؤلف والناشر معا على هذه الهدية القيمة .

● **أيام للسينما العربية فى دار ابن رشيق :**

نظمت دار الثقافة ابن رشيق من 14 الى 23 أفريل 1981 تظاهرة ثقافية بعنوان السينما العربية ، تشتمل على مجموعة من المعارض للصور والملصقات والكتب بالاضافة الى ندوة حول « **الوجه الآخر للسنيما العربية المعاصرة** » تضم عدة محاور يشترك فى تقديمها عدد من الناقدين والسينمائيين ، اما الجانب الثالث من هذه التظاهرة فيتمثل فى عرض مجموعة من الافلام العربية التى تعتبر بحق علامات بارزة فى تاريخ السنيما العربية . وقد دشن هذا المعرض واشرف على المهرجان السيد البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية ورئيس تحرير مجلة الفكر .

● **صدى الفكر فى جريدة « المحور » المغربية :**

ما يزال الاديب رشيد الذوادى يواصل نشر متابعاته الثقافية عن تونس فى جريدة « المحرر المغربية » وقد نشر أخيرا وبتاريخ 20 مارس 1981 هذه الكلمة عن محاضرة الاستاذ الاديب محمد مزالى الوزير الاول التى القاها بتونس أخيرا تحت عنوان « **الاسس الفكرية والاقتصادية لوحدة المغرب العربى الكبير** » وهذا هو نص الكلمة :

فى نطاق أول موسم ثقافى أقامته الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، ألقى الكاتب والمفكر محمد مزالى الوزير الاول التونسى مساء يوم 1981/3/6 محاضرة قيمة تحت هذا العنوان ، تعرض فيها الى جدوى العمل العربى المشترك والى تفاعل الفكر الحر وتبادل الرأى الموضوعى الصريح وتوخى التوعية السليمة الهادفة .. وذكر الاستاذ محمد مزالى بأن وحدة المغرب العربى

فى الاربعينات والخمسينات كانت تجسيما لوحدة الحركات التحريرية الثلاث ضد الاستعمار الفرنسى فى سعيه الحثيث منذ أواخر القرن التاسع عشر لفصل هذه الرقعة من الارض العربية عن سائر **الوطن العربى ، فكان رد الفعل** عنيفا وارادة الشعب واضحة ابرزتا تمسك أهل المغرب العربى بهويتهم بعد ان بحثوا عنها طويلا ..

وتعرض الاستاذ مزالى الى عوامل التقارب بين شعوب المغرب العربى منذ القدم فعدد بعضها منها : ما ربط بين **أهل المغرب العربى منذ أيام الحضارة** البونيقية القرطاجنية ، ثم كان التقاؤهم الرومانى ، ثم كان تجاوب سكان هذه الرقعة المغربية فى **الجهاد** لتركيز الكيان الاسلامى **على اثر الفتح الاسلامى ،** ومكن التحام هذه الشعوب فى وحدة للدولة مع الموحدين ثم **الحفصيين** .

وتشتت التحام هذه الشعوب ثم تمتن فى عهد **الجهاد** ضد الاستعمار الفرنسى ، اذ رغم العنت والاستلاب تمكنت هذه الرقعة المغربية من اثبات الذات وفرض الهوية .

وبعدما اشار الاستاذ محمد مزالى الى ضرورة التمسك بالتضامن المغربى عالج قضية « التعصير والاصالة » **وأكد** فى **هذا الشأن على ضرورة** بناء مجتمع مغربى انسانى السمات واضح الذاتية ، وطيد **الاصالة** ، مفتوح **الطموح** ، كريم المنزلة ، فيه تتظافر الجهود .. وفيه تلتقى العزائم ، وفيه تتصافح الضمائر وتتناسق الطاقات .

● معرض للكتاب السوفياتى :

نظمت أخيرا الشركة التونسية للتوزيع بالتعاون **مع سفارة الاتحاد** السوفياتى معرضا للكتاب السوفياتى .

ويدخل هذا المعرض السنوى فى اطار تعريف المثقف التونسى **واطلاعه** على آخر ما جد فى ميدان الكتابة والتأليف الاجنبى .

ومن ميزات معرض هذه السنة تنوعه والمامه **بمختلف أوجه النشاط الادبى** السوفياتى من ناحية والنشاط العلمى من ناحية أخرى . ناهيك **ان هذا المعرض**يحتوى على ما يقارب**العشرين**ومائة كتاب علمى**ومثلها كتب كلاسيكية**.

وشملت الكتب العلمية كل أوجه النشاط التقنى والعلمى السوفياتى وسجل هذا الجناح اقبالا منقطع النظير من طرف الجمهور الذى أراد أن يأخذ بأسباب العلم من فيزياء . وحسابيات وكيمياء وطب . ناهيك ان اصحاب المؤسسات التربوية منها أو الصناعية اتجهت الى هذا الجناح ، وقد شجعها فى ذلك الثمن الزهيد لكتب ثمينة .

اما الجناح الثانى فقد خصص للكتب الكلاسيكية باللغتين العربية والفرنسية فيها تعريف بأهم النتاج السوفياتي الادبى الحديث ومؤلفات ما قبل الثورة الشيوعية وبعدها . وتجدر الملاحظة ان التآليف المعاصرة لم تحض بنفس الاهتمام ونفس الاقبال من طرف رواد المعرض .

وقد دشن هذا المعرض الاستاذ البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية ورئيس تحرير مجله « الفكر » .

● **بـاب مفتـوح لكـل فكـر حـر :**

تحت هذا العنوان أعدت الصحافية المعروفة مفيدة حلمى : « **قصة حياة مجلة « الفكـر » التونسية بعد 25 عاما** » ونشرتها مجلة « الكـويت » فى عددها الخامس الصادر فى ربيع الثانى 1401 هـ فبراير 1981 وقد جاءت قصة حياة مجلة « الفكر » فى فصول عديدة تحمل عناوين ثانوية منها : **سر النجاح** الذى جاء فيه : عن ذكريات السنة الاولى لمجلة « الفكـر » يقول مؤسسها الاستاذ محمد مزالى الوزير الاول الحالى لحكومة تونس :

لعل السر الاول فى نجاح هذه المجلة هو أنها « مشـروع هـواة » بـدءا بمديرها ومؤسسها ورئيس تحريرها .. وانتهاء بالعاملين فيها أو المشجعين لها .. انهم جميعا من الهواة .. وكلهم يشعرون بالمسؤولية والرضا عندما يخصصون بعض أوقات فراغهم للكتابة أو المراجعة أو النقد أو جلب الاشتراكات .

وقد تكبدنا فى سبيل ترسيخ دعائم مجلتنا عناء كبيرا .. إذ لم نعتن فقط بشؤون الكتابة والطبع والتصحيح ، بل كنا نتحول من مدينة الى مدينة لجمع الاشتراكات .. لانه لم تكن لنا مـوارد ، والمجلة ليست مجلة رسمية ولا حكومية ، خلافا لما يهمس به بعضهم ...

● **الـطـبـــول :**

هذا عنوان مجموعة شعرية للشاعر المصرى الراحل فى عـز الشبـاب : محمد عبد الفتاح الشاذلى نشرتها له « **جماعـة فـاروس للآداب والفنـون** بالاسكندرية » فيفرى 1981 وتضم أربعة عشر عنوانا منها : **الطبول** ، نشيج الكمان ، الخروج من الدائرة ، مغتربان ، ارتحال الثمار ، جذور عميقة ، **وغيرها**

نشكر الصديق أحمد فضل شبلول على النسخة التى وصلتنا منه ونرجو **لفاروس** تواصل العطاء الادبى .

● **منـزل تميـم تكـرم ابنهـا الشـاعر الصـادق شـرف :**

بمناسبة صدور المجموعة الشعرية الخامسة فى العـدد 12 من « الأخـلاء » أقامت الهياكل الثقافية بمنزل تميم : النادى الادبى بدار الشباب والثقافة ،

وجمعية أحباء المكتبة والكتاب ، واللجنة الثقافية ، حفل تكريم للشاعر الصادق شرف (أبو وجدان) وذلك يوم السبت 11 أفريل 1981 على الساعة الرابعة والنصف مساء بقاعة المكتبة العمومية .

وقد حضر الحفل جمع هام من المثقفين وأحباء المحتفى به .

● العلـم والتعليـم :

صدر العدد الجديد (51) السنة السادسة من مجلة « العلم والتعليم » وقد احتوى العدد على افتتاحية بقلم المدير المسؤول الاستاذ أحمد الشرفي تحمل عنوان : « **ثورة وثقافة** » جاء فيها بالخصوص : « **فما قام به رجل الفكر والسياسة الاستاذ محمد مزالي خلال عام فقط من توليه الوزارة الاولى ، من** توعية للجماهير ، وتحليل لسلبيات الواقع ، ونقد ذاتي للاوضاع ، ورسم لمنهاجية العمل المستقبلي .. قد أنقذ البلاد من حالة التردي والانهيار ، وقطع الطريق عن مغامرات اليأس وانتفاضات البؤس ، وقد امتاز في كل ذلك بقوة الحجة التي لا تسقط ، وعمق النظرة التي لا تحجب ، وابداع الخيال الذي لا يطمس ، وشجاعة المواقف التي لا تخاف خلف التناقض المذهبي والمصلحي ، أو تجامل أصحاب الأزياء المتبدلة مع الفصول والامواج المتغيرة النغمة مع العازفين »

كما احتوى العدد على عرض موجز لكتاب « **العرب واليهود في التاريخ** » تأليف الدكتور أحمد سوسه وتحت عنوان : « التفاعل المتبادل بين الجامعة والصناعة » كتب الدكتور أحمد الحاج سعيد ، وكتب الاستاذ جمال الدين عطفه دراسة تحت عنوان : « تجربة وتطوير تدريس الرياضيات في سوريا » أما الدكتور جون خوري فقد نشر بالمجلة دراسة تحمل عنوان : « استعراض عام للتشريع المائي في البلاد العربية » .

نشكر الاستاذ أحمد الشرفي على النسخ التي وصلتنا منه من هذا العدد الجديد لمجلة « العلم والتعليم » .

● مناهج تدريس الأدب في الوطن العربي :

تحت هذا العنوان كتبت جريدة « الرياض » السعودية في عددها الصادر في 30 مارس 1981 ما يلي :

نظمت أخيرا بتونس ندوة حول (مناهج تدريس الأدب في الوطن العربي) وهي من اعداد الامانة العامة للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب بالتعاون مع اتحاد الكتاب التونسيين ، وشارك فيها عدد من الاساتذة الادباء والباحثين من فلسطين والمغرب والجزائر والعراق ولبنان والاردن والبحرين وليبيا وتونس ، واشتملت هذه الندوة على ثلاثة محاور :

2 ـ مادة الادب العربي كما هي في واقعها وكما ينبغي ان تكون .
2 ـ منهج من أجل التذوق والابداع أم من أجل تتبع تاريخي للادب ؟
3 ـ منهج تدريس الادب في ضوء غاياته الوظيفية واهدافه .

ومن هذه الزاوية تبرز أهمية هذه الندوة على مستوى المنهجية المدرسية لتطوير وسائل التبليغ الادبي بين الاستاذ (البـاث) والتلميذ (المتقبـل) . وكذلك على مستوى المضمون الادبي المقدم للطالب العربي لأن ازمة التدريس في الوطن العربي تكمن ضمن المنهجية والمضمون الفكري والادبي ، لذلك فان أغلب النقاش ارتكز على هذه المحاور المتأزمة من خلال الاطروحات المقدمة ضمن النـدوة وهي :

- (مادة تدريس الادب العربي كما هي في واقعها ، وكما ينبغي أن تكون) للدكتور عبد الرحمن ياغي أستاذ الادب بالجامعة الاردنية .
- (بعض مشاكل تدريس الادب في المغرب) للاستاذ ابراهيم الخطيب من المغـرب .
- (مناهج الادب العـربي في لبنـان كما هي ، وكما ينبغي أن تكـون) للدكتور محمد علي موسى من لبنان .
- (النص الادبي بين التوظيف اللغـوي والتـوظيف النقـدي) للدكتـور عبد السلام المسدي من تونس .
- (طول المناهج والبرامج) للاستاذ أحمد منور من الجزائر .
- (تجربة تدريس الادب في الجامعة البحرينية) للاستاذ علـوي هـاشم من البحرين .
- (شكلية النقد وانغلاقه) للاستاذ أحمد أبو مطر من فلسطين .
- (مناهج تدريس الادب العربي في العراق) للدكتورة حياة جاسم .
- (العمل على تنمية الذوق) للاستاذ فوزي الطاهر حسين من ليبيا .

وحول واقع ومناهج تدريس الادب في الوطن العربي يقول **السيد الاستاذ البشير بن سلامة رئيس تحرير مجلة « الفكـر » ووزير الثقافة التونسي :**

(إن أول ملاحظة يمكن ابرازها في مادة تـدريس الادب في البلاد العربية هو خلو البرامج من نظرة شاملة ومستوفاة الى أهم التيارات الادبية الموجودة في كل قطر عربي مع أسماء اعلامها وأروع آثارها ، فهـل نحن نجد مثلا في الكتب المبرمجة بالشرق العربي نصوصا كثيـرة تعـرف الناشـىء العـربي باهتمامات الكتاب المغاربة قديما وحديثا ؟ وهل نجد أكثر من ذكر أبي القاسم الشـابي وفي بعض الاحيان محمود المسعـدي ؟ بينما الادب التونسي الحديث يزخر بالكتاب والشعراء الذين لا يقلون قيمة وأثرا عن أشقائهم المشارقة .

وان الخطوة الاولى التي من الواجب علينا ان نخطوها هي ان تخصص ندوة من الندوات القادمة في فض هذا المشكل ببرنامج مضبوط يقدمه كل اتحاد ويضع فيه الحد الادنى مما يجب أن يعرفه الملتقى الناشىء عن أدب الاقطار العربية الاخرى ، ذلك ان العقبة الاولى تكمن في الاتفاق على انه من الواجب التعريف بأدب كل قطر ثم نقف عند هذا الحد ، بينما المجهود الذى يفرض نفسه علينا هو ان نقوم بعمل ملموس مجسم ، واني في هذا الباب اقترح ان يعمد كل اتحاد الى :

1 ـ اعداد كتاب مختصر يتضمن أهم التيارات الادبية والفكرية مع الاعلام والنصوص ويقتصر في ذلك على الادب الحديث في قطره .

2 ـ اعداد مختارات تهم الشعر والقصة والدراسة والبحث والنقد ، وان هذا العمل من شأنه أن يسهل العمل على أمانة اتحاد الادباء العرب ، فتصدر هي بدورها كتابا يتضمن كل التيارات الادبية والفكرية في الوطن العربي مع الاعلام والنصوص لتكون مرجعا في اعداد المناهج والبرامج ، وبذلك نسهل على وزارات التربية في كل بلد عربي تنفيذ هذه الأمنية .

وبديهي ان هذا العمل يقتضي التمويلات الضخمة والمجهودات الجبارة التي يجب ان تتضافر للخروج من هذا التعثر الذى ينسب الى اتحاد الادباء العرب وهو في الواقع ليس بتعثر وانما هو تحسس للعمل المثمر المجدى الذى لا يتأتى الا باللقاءات المتكررة والحوار المستمر .

فحبذا ، اذن ، لو خطونا هذه الخطوة فنكون قد اسدينا للاجيال العربية خدمة جليلة في مزيد التعريف بالاقطار العربية وبرجالاتها وبظروف حياتها وهو الضمان الوحيد الذى به نتقارب ثم نتعاون ثم نتحد ..

ثم ان هناك مسألة أخرى لها أهميتها أيضا وهي التعادلية التي يجب أن نوجدها بين تدريس مادة الادب واللغة العربية ، فكثيرا ما يعسر علينا التوفيق بين أمرين :

أ ـ تذوق التراث الادبي القديم الذى يمثل في غالب الاحيان فترة من الفترات الماضية وهو أمر لا مفر من اقراره حتى لا نقطع الصلة بماضينا .

ب ـ اعطاء اللغة العربية شحنة عصرية تحمل بين طياتها مفاهيم العصر وحضارته .

واقد صدرت اثر الندوة سبع توصيات هامة وأساسية لتوحيد مناهج تدريس الادب على امتداد الوطن العربي وهي :

1 ـ ضرورة وضع اهداف واضحة لتدريس مادة الادب على المستويات المختلفة في مراحل التدريس آخذة بعين الاعتبار الانسان العربي ومجتمعه

وقضاياه الاجتماعية والوطنية والقومية والانسانية ، وتفتح السبيل أمام المتلقى ليصل الى موقع يكون فيه متفاعلا مع تجارب الحاضر منتفعا من تراث الماضى ومتوجها نحو المستقبل .

2 ـ تعميق التذوق الفنى والجمالى فى مناهج تدريس الادب لا تكديس المعارف وجمعها وحفظها عن ظهر قلب .

3 ـ ابراز الاطار الحضارى للعصور الادبية العربية ليكون اطارا شاملا لدراسة الادب لا هدفا أساسيا له وتخصيص عصر النهضة والعصر الحديث بقسط وافر من العناية بما يؤهل المتلقى لفهم حاضره وقضاياه الملحة والمصيرية وتزويده بأدوات الدراسة والمعرفة والاختبار والتمحيص الملائم لذلك .

4 ـ تشجيع الاتجاه الاخذ بتعريف الدارسين بروائع الادب العالمى ونظيراتها العربية والافادة من المقاييس والمذاهب العالمية بما يتلاءم والخصوصية الوطنية والقومية والانسانية للمجتمع العربى المعاصر .

5 ـ وجوب تحديث أساليب تدريس اللغة العربية بما يخدم الادب العربى ويربطه بالحاجات الحضارية المتنامية للامة العربية ، والابتعاد عن الاساليب القديمة التى تحيل النص الادبى الى مجرد مادة قابلة للاستظهار بما يعزز الدور الفاعل للغة والادب فى الحياة القومية للجماهير وحركة المجتمع والعصر .

6 ـ ضرورة أن تمثل النصوص المدرجة فى كتب تدريس الادب كافة الاقطار العربية حتى يتمكن الدارسون من الاطلاع على الواقع الادبى فى الوطن العربى بصورة شاملة .

7 ـ ضرورة عقد ندوات ولقاءات دورية متخصصة تضطلع بها وزارات التربية والتعليم والجامعات فى الوطن العربى بالتنسيق والتعاون مع الامانة العامة للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فى الجامعة العربية ومراكز البحوث والدراسات العلمية ذات العلاقة المشتركة من أجل الوصول الى وضع صيغة موحدة لمناهج وبرامج وأساليب تدريس الادب فى الوطن العربى ، آخذة بعين الاعتبار الخصائص الوطنية ضمن الشمولية القومية .

● **عضو جديد بمجمع اللغة العربية بالاردن :**

أصبح الدكتور محيى الدين صابر من أعضاء مجمع اللغة العربية بالاردن .

وقرر المجمع ذلك فى جلسته الاخيرة وأرسل الى الدكتور صابر رسالة فى هذا المعنى . والدكتور محيى الدين صابر من أشد المتحمسين لتطوير اللغة العربية وهو المدير العام لمنظمة التربية والثقافة والعلوم له تهانينا الخالصة .

● الكتـاب التـونسى يدخـل سـوق الاردن :

أمضت الدار التونسية للنشر اتفاقا مع الاستاذ سليمان عويس مدير عام دار الهد للنشر والتوزيع بالاردن على توزيع منشورت الدار التونسية للنشر الصادرة الى اليوم والتى ستصدر ابتداء من هذا التاريـخ فى كافـة المملكـة الاردنية الهاشمية كما اتفق الطرفان على اصدار طبعات مشتركة من منشورات الدارين التى تتضح الحاجة المتبادلة اليها كما تعين تنظيم أسبـوع للكتـاب التونسى فى ثلاث مدن أردنية بتاريخ يتم تعيينه بالاتفاق بين الجانبين .

● تاريـخ الأدب العـربى فـى ثـلاثة أجـزاء :

تم الاتفاق أخيرا بين الدار التونسية للنشر والدكتور ابراهيم الكيـلانى الاستاذ بجامعة دمشق على نشر ترجمتـه لكتـاب « تاريـخ الادب العـربى » (لبلاشيـر) فى ثلاثة أجزاء وهو انموذج للـدراسة العلمية كمـا يفهمهـا مستشرق كبير فى مقام (بلاشير) فهو من جهة يستعـرض الآثـار الادبيـة برمتها نثرا وشعرا ويحـاول أن يصنفهـا وأن يـدرس العـوامل الجغـرافية والتاريخية والسياسية والاقتصادية التى عملت على تكوينها .

ومن المعلوم ان الدكتور ابراهيم الكيلانى معروف بأعماله الزاخرة فى ميدان التأليف والترجمة والتحقيق مثل تحقيقه لكتاب « البصائر والذخائر » لأبـى حيـان التـوحيدى .

● الكتاب التونسى فى « معرض الكتاب » بالبلاد العربية :

أخيرا نظمت الشركة التونسية للتوزيع بالاشتراك مع الـدار التونسيـة للنشر ثلاثة معارض دولية كبرى للكتاب فى أبو ظبـى ، صنعـاء ، اليمـن ، طرابلس ، مع تنظيم أسبوع للكتاب التونسى بالمغرب الشقيق واحتمال الاتفاق على أسبوع للكتاب التونسى بالجزائر الشقيقة .

● شهـر ثقـافى حـافل فـى تـونس :

تحت هذا العنوان كتبت جريدة « الجزيرة » السعودية فى عددها الصادر يوم 30 مارس 1981 ما يلى :

« مضى شهر فبراير المنقضى 1981 فى تونس دون ان يكون له ما يميزه عن بقية الشهور الشتوية فى الحياة الثقافية التونسية التى تتخذ من الشارع الثقافى واجهة لها . ويقصد فى تونس بالشـارع الثقـافى أروقـة عـروض الفنـون التشكيلية ودور الثقافة وبعض النوادى والمسرح البلـدى وقاعـات العـروض

السينمائية . اما منشطو هذا الشارع ورواده فمن الطلبة ومن المثقفين ، وان كانت طائفة منهم تقضي جل أوقاتها في المقاهي تناقش ما يعن من المسائل والقضايا ، تربطها بمستقبل البلاد الاقتصادي السياسي ، وتحاول استجلاء علاقاتها بالعالم الخارجي خاصة على ضوء مختلف المذاهب والآراء مما يجعلها تغرق في كثير من الاحيان في متاهات فكرية أقرب الى التهويمات منها الى التحليل الموضوعي البناء . وفي الجانب الآخر تحتفظ المؤسسات الاكاديمية بسرها في نطاق ما تعارف أهلها على تسميته بحرمة الجامعة .

وكثيرا ما دعا المسؤولون الجامعة والجامعيين الى الخروج من البرج العاجي والاسهام في مختلف ميادين الحياة . لكن هؤلاء يرفضون ان يخلطوا أنفسهم بأهل الشارع ويعتبرون ان لكل عمل أصولا وقواعد يجب احترامها . ما دام هذا الشارع لم يربأ بنفسه عن تناول سقط المواضيع بأتفه الاساليب ، فلا مجال للاحتكاك ، بل لا سبيل الى التقارب .

وتحت عنوان :

« مناهج تدريس الادب في الوطن العربي » واصلت جريدة الجزيرة تقول :

« لقد تجلت القطيعة بين الشارع الثقافي التونسي والمؤسسات الجامعية ممثلة خاصة في كلية الآداب والعلوم الانسانية في الايام الثلاثة من منتصف شهر فيفري / فبراير (13 – 15) التي خصصت لعقد ندوة بعنوان (مناهج تدريس الادب في الوطن العربي) باشراف الامانة العامة للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب بالتعاون مع اتحاد الكتاب التونسيين . ذلك ان اتحاد الكتاب التونسيين لم يوجه الدعوة بالمشاركة الا لعدد قليل من الاساتذة الجامعيين في تونس وقد تردد هؤلاء كثيرا في المشاركة بالنظر الى القصد من التضييق في الدعوات التي ما كانت لتوجه لولا وجوب انقاذ الموقف التونسي بأن تكون هناك مشاركة تونسية ومن مستوى جامعي ما دام الامر يتعلق بمناهج تدريس الادب ، لأن الأدباء والكتاب ليسوا مدرسين بالضرورة . والسبب الأصلي في نفور اتحاد الكتاب التونسيين من الجامعيين ، هو ان هؤلاء يعترضون على دخول الكتاب الى الجامعة في حين يعتبر الكتاب انهم أهل للتدريس بالجامعة . ويتبادل الطرفان اللوم وحتى الاتهام مما أفضى الى برودة في العلاقات لا تختلف كثيرا عن القطيعة .

وانعكس هذا الفتور على أشغال الندوة التي شارك فيها أساتذة وباحثون من العراق والاردن (ممثلا في الاستاذ عبد الرحمن ياغي الامين العام لاتحاد الادباء والكتاب العرب) وفلسطين ولبنان والبحرين وليبيا والجزائر والمغرب

وتونس ، فلم تلق الندوة صدى فى الصحافة اليومية التونسية التى تخصص صفحات أو ملاحق ثقافية كل أسبوع بسبب عدم احكام تنظيم الندوة مما جعل عدد المقبلين عليها لا يحتلون عشر مقاعد دار الثقافة « ابن رشيق » التى حتضنت اللقاء . ولم يحضر افتتاحها ايضا أحد من المسؤولين فى الحكومة وخاصة الثالوث الثقافى الذى قليلا ما تفوته فرصة فى مجال الثقافة والادب دون ان يعطيها ابعادا تجلب اضواء الصحافة المرئية والمكتوبة والمسموعة ، مما يلفت نظر الرأى العام فى نهاية الامر .

ومما ساعد على مرور هذا اللقاء ، رغم توصياته الكثيرة ودخوله فى الجزئيات الطفيفة ، مرورا باهتا اختياره لموضوع ليس من اختصاص الادباء والكتاب بالدرجة الاولى بقدر ما هو من اختصاص أهل التعليم والتدريس . لكن ما زال كثير منا فى العالم العربى يعتقد انه موسوعة لاتفوتها شاردة ولا واردة ، تضرب فى كل غرض بسهم فى حين ان من يحترم نفسه لا يتعاطى من الاعمال الا ما يتقنه . هذا بالاضافة الى تباين وجهات النظر واختلاف المشارب بين المشاركين لأسباب لا حصر لها ، وأهمها اختلاف المنطلقات وواقع الاقطار العربية واختياراتها .. وكانت محاور الندوة هى الاخرى مشتتة واسعة .

كما علقت جريدة « الجزيرة » على العدد السادس من مجلة « الفكر » س 26 — 1981 — فقالت :

وقد تناولت افتتاحية المجلة موضوع الندوة فسردت توصياتها بالتفصيل وعلقت عليها . وتركز التعليق فى ملاحظتين اساسيتين هما :

— خلو برامج الادب فى العالم العربى من نظرة شاملة مستوفاة الى اهم التيارات الادبية الموجودة فى كل قطر عربى مع اسماء اعلامها واروع آثارها .

— التعادلية التى يجب ايجادها بين تدريس مادة الادب واللغة العربية اذ انه من العسير — فى نظر صاحب الافتتاحية — التوفيق بين تذوق التراث الادبى القديم واعطاء اللغة العربية شحنة عصرية تحمل بين طياتها مفاهيم العصر وحضارته .

وختم كاتب الافتتاحية تعليقه بقوله « ان هذه الندوة يجب ان تتبعها خطوة اخرى عملية وان تتحمس لها الاتحادات وتشرع فى هذا العمل الذى لا يمكن لاى عربى الا ان يباركه » .

وبرغم ذلك كله يبقى هدف الندوة هدفا نبيلا كما يتجلى ذلك من خلال توصياتها التى ترمى فى جملتها الى توحيد مناهج تدريس الادب وتعميق التذوق الفنى والجمالى وابراز الاطار الحضارى للعصور الادبية العربية وتعريف الدارسين بروائع الادب العالمى وتحديث أساليب تدريس اللغة العربية والاطلاع على واقع الادب فى كافة الاقطار العربية (الظرف بالحجاز فى العصر الاموى) و (رسالة الدوبيت) . كما تضمن عدة قصائد من الشعر الحر والعمودى وثلاث أقاصيص . وقد شارك الى جانب التونسيين بعض الكتاب من مصر والمغرب .

ومن جملة الدراسات واحدة خصصت لتقديم ديوان شعرى بعنوان (بيت القصيد) من تأليف أحد المعلمين قال عنه « المقدم » هذه المجموعة الشعرية من أدب المعلمين تمثل مرحلة من مسار مرب مرهف الحس عزاف انغام هزلية جدية فى آن واحد .. ومن الهزل والجد فى الوقت نفسه بيتان قالهما هذا المعلم الشاعر فى وصف اهتمام تلاميذه بكرة القدم بدل الاهتمام بالدرس :

انشاؤهم كرة ونحوهم كرة والفكر راح بهم فى (كورة) القدم
قد جاء ذكر لها بالآى فى (كورت)فأين ايمانكم من(كورة)القدم

وتواصل جريدة « الجزيرة » تعليقها فى مقال « شهر ثقافى فى تونس » وتكتب عن مجلة « الحياة الثقافية » قائلة :

المجلة الثانية التى صدرت فى اعقاب هذا الشهر ، هى مجلة « الحياة الثقافية » وهى مجلة ثقافية جامعة تصدر كل شهرين عن وزارة الشؤون الثقافية منذ سنة 1975 ويديرها وزير الثقافة ويشارك فى هيئة تحريرها ثلة من الادباء والاساتذة الجامعيين . وهى مجلة مفتوحة على العالم العربى بالنشر ، والعالم الغربى بالتقديم والترجمة .

وقد جاء هذا العدد متأخرا عن موعد صدوره بشهرين كاملين ، متضمنا مقالات عديدة من بينها (جوامع السيرة لابن حزم ٦ رؤية أندلسلة للسيرة النبوية ، وعقدة المتنبى أو وضع المثقف فى المجتمع العربى من خلال مقدمة ابن خلدون) ، كما تضمنت ملفا هاما عن أيام قرطاج السينمائية .